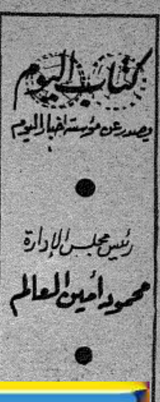


يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم



محمود عوض

أم كلثوم
التى لا يعرفها أحد



الغلاف بريشة الفنــــان

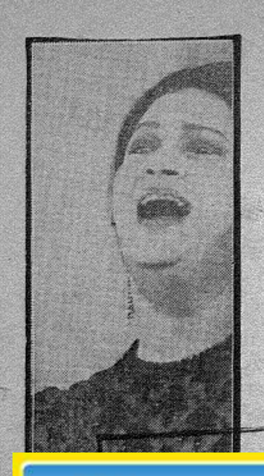
مصطفى حسين

إهـــــــــداء ٢٠٠٧

الأستاذ / عبد الغنى أبو العينين

جمهورية مصر العربية

محمود عوض





أم كلثوم

التي لا يعرفها أحد



تليجرام : هنا سور الازبكية
أكبر مكتبة رقمية



مقـــدمة ..



صديق لا أعرفه

.. كم الساعة الآن ؟! ..

سؤال يقفز الى ذهنى اوتوميكيا كلما فكرت فى أم كلثوم ،عندما استمع اليها تغنى ، تتكلم ، تناقش ، بل ــ حتى ــ وهى تستمع .. اكتشف ان الوقت قد خدعنى . عنـدما امد يدى الى شريط من اغانى ام كلثوم .. اى شريط .. فاننى اديره لكى استمع منه الى خمس دقائق ، عشر دقائق ، ربع سـاعة ، ولكننى اكتشف فجأة ان الوقت قد جرى منى دون ان ادرى . اكتشفت سؤالا تقفز الى ذهنى فجاة : كم الساعة الآن ؟! .. الساعة السابعة ، الثامنة التاسعة ، العاشرة مساء . اربع ساعات قضيتها وانا استمع .. الى اغنية لم اسمعها منذ مدة طويلة ــ منذ اربع ساعات ــ تصور وبينما استمع الى أم كلثوم فربما ــ ربما ــ انتبه الى الوقت من جديد قرب منتصف الليل . ايه ؟! كم الساعة ؟! منتصف الليل ؟! لا .. لا .. هذا كثير ! ..

ولكن لا يوجد كثير عندما تستمع الى أم كلثوم ، لم يعد هناك كثير من التصفيق .. كثير من الانفعـال .. كثير من الوقت .. تحول الكثير الى شيء عادى . روتين . عادة . بل انى اعـرف صـديقا يحدث له اكثر من هذا عندما يستمع الى ام كلثـوم ، اذا أعطيت لصديقى هذا كرسيا وطلبت منه ان يجلس عليه .. فانه سوف يجلس .. ساعة ، يوما ، اسبوعا ، لو لزم الامر . صديقى لن يطلب منك شـيئا اكثر من الطعام و .. اسـطوانات ام كلثوم ! ..

اننى لا اعرف صديقى هذا . اعرف فقط ان اسمه هو (م) . هذا اسمه ــ ميم ــ .. نقطة . لاننى لا استطيع كتابة اسماءمليون شخص ، مائة مليون شخص ، يفعلون ما يفعله صديقى هذاعندما يستمعون الى ام كلثوم ..

هؤلاء .. هم جمهور ام كلثوم ..

ومنذ وقت طويل مضى ، اعتادت ام كلثوم على هذا الحب من جمهورها ، انها تستمع منهم الى التصفيق . ثم ماذا بعد ذلك ؟ التقدير . ثم ماذا ؟ الشهرة ، الاعجاب ، الحب ـ نعم ـ ثم ماذا اخيرا ؟ التصفيق من جديد .. هذا كل شيء ..

ومعنى ذلك اننا لم نعـــرف اكثر من ١٥ ٪ من ام كلثوم ، لم نشاهدها سوى كل ليلة خميس تغنى فيها ، هذا كل ما نعرفه . اما حياة ام كلثوم ـ شخصية ام كلثوم ـ ابتداء من الجمعة الى الاربعاء ، من الصباح الى المساء ، من الفجر الى العشـــاء .. فلم نعرف عنها الكثير بعد . مازالت شخصية ام كلثوم تحتـــاج الى اكتشاف .. الى تحليل . الى اعادة نظر ..

اكتشاف آخر : ان ام كلثوم هى السبب فى هذا كله ! ..
لقد أقامت ام كلثوم سورا صينيا حول شخصيتها ، سورا عاليا .. ســـورا يحجب ماق داخله ، خلف هـــذا السور تحتفظ ام كلثوم بحياتها الخاصة ، بشخصيتها الخاصة ، بافكارها الخاصة . ان ام كلثوم قد اتخـــذت قرارا اختياريا سابقا : ان تعيش حياتها بين قوسين ..

وشيئا فشيئا بدات احاول اقناع ام كلثوم ان تفتح القوسين ، أن تفتح باب السور حتى يعرف الناس كل حياتها ، كل شخصيتها كل تفكيرها ، شهر وشهر .. وسنة .. ثم بدات ام كلثوم تتكلم ، بدأت تتكلم ـ بعد سنة ـ لكى تروى لى أشياء كثيرة جدا .. اشياء أستطيع تلخيصها تحت عنوان واحد : لا شيء ! .. ولا حرف ، ولا كلمة ، ولا ـ حتى ـ وعد بكلمة ..

ولكننى حاولت من جـــديد .. مرة .. ومرة .. ومره . ثم ـ اخيرا ـ بدات ام كلثوم تتكلم . تتكلم فعلا ..



فى هذه المرة كان حديثى مع أم كلثوم يبــدا على أســـاس انه مستغرق نصف ســـاعة ـ بالكثير ساعة ـ ولـكن .. ها هو الســـؤال من جـديد يقفز الى ذهنى تلقائيا : كم الساعة الآن ؟ لحظتها اكتشفت ان الساعة قد توقفت منذ ساعة ، ســـاعتين ، ثلاث ، أربع ـ أحيانا خمس ـ ساعات ! ..

وفى كل مرة كنت اعـــود الى الاوراق التى كتبتها من حيـــاة أم كلثوم . اعادة نظر . ماذا فى يدى ؟ أوراق ـ نعم ـ ولكن .. ماذا كل هـــذه الصفحات .. ؟ كل هـذه الاسرار عن شخصية أم كلثوم ؟ ..

ان ام كلثـــوم بدات حياتها من لا شىء . اقل من لاشىء .. من الصفر .. من تحت الصفر .. ولكنها استطاعت ان تصل الى قمة لم يصل اليها احد ، ثم استمرت فى وقت لا يستمر فيه أحد .. وفيما بين النقطتين ـ القاع والقمة ـ واجهت ام كلثوم مواقف كثيرة : الفقر ، الجوع ، الحرمان ، الشقاء ، الياس ، الهـــزيمة ، السقوط ، الفشل ، الالم ، العذاب ـ كثيرا من العذاب ، ثم ـ بعد وقت طويل ـ النجاح ، مواقف لا يعرفها أحد ..

فيما بين القاع والقمـــة كان فن ام كلثوم هو ـ فى الواقع ـ الطريقة التى عاشت بها ، حياتها نفسها .. هى الفن .. فن أم كلثوم هو حياتها ، وحيـــاتها هى شخصيتها ، وشخصيتها هى ـ من جـــديد ـ المفتاح الرئيسى ـ لفهم أم كلثوم . ان أم كلثوم هنا هى نموذج ، هى رمز ، رمز لشخصية ، لحيـــاة ، لمجتمع ، لظروف هذا المجتمع .

و .. ..

الصفحات القادمة هى حصيلة هـذا كله .. حصـــيلة افكار

ام كلثوم .. وافكار المجتمع عن ام كلثوم . نصفها مذكرات منها ؛ ونصفها مذكرات عنها . حل وسط ..

فى هذه النقطة اريد أن انبه الى شيء هام : اننى أعشق صوت أم كلثوم ، ولكننى لا أعبده • فى الواقع اننى انتمى الى جيل جديد لا « يعبد » احدا . جيل يحب ، يعجب ، يعشق .. ولكنه لا يفعل — حتى هذا — الا بعد أن يفهم •• ويناقش • جيل يرفض استثناء أحد من المناقشة •• والمراجعة •

وأم كلثوم نفسها متفقة معى فى هذه النقطة • بل انه فى مكانين على الاقل من هذا الكتاب حدث خلاف فى الرأى بين أم كلثوم وبينى • مازال الخلاف قائما •

ولكننى اومن باننى اذا كنت معجبا حقا باحد •• فيجب أن اعبر عن هذا الاعجاب وانا واقف على قدمى ..

ان أم كلثوم نجحت فى اشياء كثيرة . . سوف تسجل الصفحات القادمة جزءا منها . .

وفشلت ام كلثوم فى اشياء قليلة ، سوف تسجل الصفحات القادمة معظمها ..

ولكن .. يبقى فى النهاية شيء واحد . لقد فشلت أم كلثوم فى شيء اكبر من هذا كله : فشلت فى أن تكون امرأة عادية ! ..

بهذا السطر أعلن انسحابى مؤقتا .. حتى أجلس فى مقاعد القارىء لصفحات .. من مذكرات أم كلثوم . مذكرات منها وعنها مذكرات الى صديقى المجهول « م » .. ميم . . نقطة . مليون مستمع — مائة مليون مستمع — يعشقون أم كلثوم ! ..

محمود عوض

تعلمت من امي التواضع

و تعلمت منها الصدق

و تعلمت منها الايمان بالله

ام كلثوم

صفحه من مذكرات ام كلثوم بخط يدها



« .. كانت اول حفلة غنيت فيها مزدحمة جدا بالناس . لقــــد حضرها خمسة عشر شخصا »!!

ام كلثوم

من مذكرات أم كلثوم

سنوات السير على الأقدام!

كانت فاطمـة تقيم فى بيت ريفى صـــغير من الطوب النىء . البيت له عدة ابواب تطل على حوش ، وراء كل باب حجرة صغيرة طولها ثلاثة امتار وعرضها متران تقيم فيها اسرة مكونة من زوج وزوجة وعدة اطفال ..

وفى احدى هذه الحجرات رقدت فاطمة المليجى تتلوى من الالم فى انتظار المولود ..

ومع الفجر ، اطلت المولودة براسها ، وحملت الداية القروية المولودة وخرجت بها الى المندرة وهى تصرخ : مبروك فاطمة ولدت! ولم تقل الداية ان فاطمة أنجبت طفلة .. فقد خشيت أن يصطدم الاب بالخبر ! ..

وكان الاب يجلس على الارض يقرأ كتابا عن أولاد النبى .. وكانت عيناه فى تلك اللحظة على اسم احدى بنات النبى ، وقبل أن يسمع أنه رزق بمولود او مولودة صاح : نسميها باســم بنت النبى ، نسميها أم كلثوم ! ..

ولم يكن اسم « أم كلثوم » معروفا ولا متداولا فى قرية (طماى) ولا القرى المجاورة ، ولهذا بدا اسما غريبا على اسماعهم .

ولم تعارض فاطمة فى اختيار هذا الاسم ، ولكن الاهل والاقارب اعترضوا على الاسم الغريب ، وراحـوا يحاولون اقناع الشيخ ابراهيم باختيار اسم خفيف مثل خضره وبدوية وست الدار !.

ورفض الشيخ هذه الاسماء ، لقد اصر على ان يسمى المولودة باسم بنت النبى ' ام كلثوم !..

ويظهر ان امى كانت تشارك اهل القرية سرا فى اعتراضهم على اسم « أم كلثوم » .. لاننى وعيت عليها وهى تناديني باســـم « سومة » ، وكان والدى ايامها امام مســـجد فى قرية « طماى الزهايرة » من اعمال مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية ، وكان

مرتبه من الامامة لا يكفي للصرف على اسرته ، ولهـــذا كان يقرأ القرآن في الموالد ، ان مجموع دخله من عمله الاصلي وعمله الاضافي لم يكن يتجاوز عشرين قرشاً ..!

وكان هذا المبلغ هو الذي يغطي كل شهر نفقات اسره مكونه من امي وابي واخي خالد .. وانا ! ..

ولا اعرف كيف كنا نعيش بهذا المبلغ البسيط .. فان صورة معيشتنا المتواضعة لا تعيش في ذاكرتي . ان اول صورة اذكرها اليوم هي صوره « ستي نصرة » أم ابي . كانت نحيفة سمراء مسمسمة التقاطيع ، انني مازلت اذكرها وقد ارتدت جلبابا اسود وطرحة سوداء وجلست على الارض تفصل لي عروسة من القماش وانا جالسة مسحورة ! اذكر انها لما انتهت من تفصيل العروسة وملأتها بالقطن ، رسمت عليها العينين والحاجبين والشفتين ، ثم قطعت خصلة من شعرها ، ولصقتها على رأس العروسة ، وانا ارقب عملية الخلق في دهشة واعجاب ! ..

ولاحظت ان اخي كان يحمل كتبا وكراسات كل صباح ويذهب الى الكتاب المواجه لبيتنا . فذهبت ابكي لامي واطالبها بادخالي الكتاب ! ..

وقالت امي انت صغيرة السن ! ..

ولكني رحت اذرف الدموع والح على ابي ان يدخلني الكتاب !

وتعب ابي من الحاحي فادخلني « كتاب » ســيدنا الشيخ عبد العزيز ! ..

وكنت اذهب كل صباح الى الكتاب واجلس في الفصل دون ان اتعلم شيئا ! ..

وكنت سعيدة بدخولي الكتاب . فقد اصبحت لي كل مظاهر اخي الكبير ، ولم اتنبه الى أنه كان يتعلم .. بينما كنت انا اتفرج ! وبعد بضعة اشهر سمعت أبي يهمس لامي عقب صلاة الفجر مرة ! أنا ما اقدرش ادفع مصاريف أم كلثوم .. ما عنديش غير قرش واحد ادفعه للولد ..

وراحت امي تلح على ابي وترجوه ان يبحث عن اى طريقة يدبر بها قرشا آخر حتى لا ينكسر قلبي ، لقد كانت مصاريف الكتاب قرشا واحدا ، ادفعه كل اسبوع لسيدنا فقي الكتاب !

واستطاع ابي ان يدبر هذا القرش ، ولم اخرج من الكتاب .

وتحولت مع الايام من متفرجة الى تلميذة بعد ان رايت زملائى فى الفصل يكتبون ويقرأون ؛ وبدأت أتتبع دروس الشيخ عبد العزيز ، بعد ان كنت أتتبع حركاته ونظراته !..

وفجأة .. طارت سعادتى ! وكرهت التعليم والشيخ عبد العزيز

فقد حدث ان أساءت لى زميلتى وجارتى على « التخته » التلميذة عزيزة .. فقررت أن انتقم منها .

وذهبت قبل موعد بدء دخول التلاميذ الى الكتاب ، وفتحت درج عزيزة وكسرت لوح الاردواز الذى تكتب عليه .

وفجأة دخل مفتش وزارة المعارف ! فقفزت من مقعدى وضربت له السلام !

وسأل المفتش عن الشيخ عبد العزيز ، فقلت له انه لم يحضر بعد ..

وحضر الشيخ عبد العزيز بعد فتره من انتظار المفتش الذى كان يتميز غيظا من تأخر الشيخ ! ..

ولما جاء الشيخ قال له المفتش : ما شاء الله ! البنت الصغيرة تحضر فى الميعاد .. وحضرتك تتأخر نصف ساعة !

وضاق الشيخ عبد العزيز بهذا اللوم ، وحملنى مسئوليته ، وراح يضطهدنى ، فى كل مناسبة كان يسأل السؤال ثم يتجه نحوى دائما ويقول ساخرا : قومى جاوبى يا بنت يافالحة!..

وكان زملائى وزميلاتى يغرقون فى الضحك كلما سمعوا كلمة « فالحة » ! ..

وضاقت الدنيا فى وجهى ! واصبحت اكره الذهاب الى الكتاب حتى لا اقع فى قبضة الشيخ عبد العزيز .اسئلته ! .

وفى يوم من الايام فتحت لى السماء ابوابها ..

لقد مات الشيخ عبد العزيز فقيه الكتاب !

ولم اصدق النبا .. تصورت اننى احلم ! ذهبت الى الكتاب فقالوا لى ان سيدنا قد مات فلم اصدق ، ذهبت الى بيته ، رايت دموع زوجته وامه وابنته فلم اصدق ! .. ولما سارت جنازته وراء نعشه حتى المدافن ، انتظرت حتى اخرجوه من النعش وادخلوه المقبرة وواروه التراب ! ..

لقد كنت أتصور أن الشيخ عبد العزيز من الشخصيات التى



الفتاة القروية أم كلثوم ابراهيم فى سنواتها الغنائية المبكرة • صورة التقطت لها سنه ١٩٢٤ ولا توجد نسخة منها عند أم كلثوم •

لا يمكن ان نموت ! كنت اتصــور انه ســيطل براســه فجاه من القبر ويقول لى

قومى جاوبى يابنت « يا فالحه » :..

ولكن سيدنا الشيخ لم يطل براسه من تحت التراب !

وتوهمت انهم دفنوا التعليم فى القبر مع الشيخ عبد العزيز ! تصورت ان عصر الذهاب الى الكتاب قد انتهى ولن يعود،تصورت انه محرم فكرة التعليم ..

ولكن سعادتى طارت منى مره اخرى

لقد فوجئت بأن سيدنا الشيخ عبد العزيز لم يكن الفقيه الوحيد فى الدنيا ! فوجئت بأن التعليم لم يدفن معه فى القبر كما تصورت !

فوجئت بانه لا يزال هناك « اسياد » على قيد الحياة يعلمون فى الكتاتيب ! ..

لقد اغلق كتاب سيدنا الشــيخ عبد العــزيز ابوابه ، وبقيت كتاتيب اخرى مفتوحة الابواب ! ..

وصدر والدى امره الذى لا يقبل مناقشه بان انتقل مع اخى خالد الى كتاب آخر يبعد عن بلدتنا حوالى ثلاثة كيلومترات.. انه كتاب عزبة « الحوال » بالسنبلاوين ! ..

وكنا نمشى كل صباح ثلاثة كيلو مترات الى الكتاب ، ثم نمشى ثلاثة كيلو مترات اخرى الى قريتنا ! أى اننى كنت اقطع كل يوم سته كيلو مترات مشيا على الاقدام ! ولكنى فى الواقع كنت اقطع عاده سبعة او ثمانية كيلو مترات بسبب حبى للمغالطة !

فقد انضم لنا صابر ابن زوج اختى ، وعمــرو وهو من قرية مجاوره ، وكنا نحن الاربعة نلعب لعبة كرسى السلطان اثناء عودتنا من الكتاب . كان كل ثلاثة منا يحملون الرابع من عمود تليفون .. الى عمود تليفون !

وكنا نختلف عشرات المرات ! كان كل منا يدعى ان هذا دوره فى الجلوس على كرسى الســلطان !.. وكنت اكثرهم مغـــالطة .. وصرارا على أنى صاحبة الدور ! ولذلك كنا نرجع عشرات المرات الى اعمدة التليفون التى مررنا بها ، لنبدأ الرحلة من جــديد ، ونرضى الطفل الذى ادعى دوره فى الجلوس على كرسى السلطان !

وبدأت احب الكتاب من جديد ، لاننى كنت احب لعبة كرسى السلطان ! ..

وبدات مقاومتى للتعليم تتكسر ، خصـــوصا ان فقيه الكتاب الشيخ ابراهيم واولاده لم يضطهدنى كما كان يفعل سيدنا الشيخ عبد العزيز ! لم يقل لى « الاسياد » الجدد قومى يا بنت يا فالحة! لم يسخر منى سيدنا الشيخ ! لم يركز اسئلته فى الفصل على ام كلثوم ، الا اذا رفعت اصبعها وابدت استعدادها للاجابة ! .

وبدات احب اســـاتذتى .. وحبى لهم جعلنى احب التعليم ! واحب الذهاب الى الكتاب ! ..

وكانت حياة طفولتى سعيدة مليئة بالضحكات ـ مع الفقر ـ الى ان صحوت فى فجر احد الايام على صوت همسات بين امى وابى ! ..

سمعت امى تسأل ابى عن سر قلقه طوال الليل ؛ وسمعت ابى يقول لها : العيـــد جاى ! .. ومش قادر اجيب للاولاد جلاليب جديدة فى العيد ! ..

واحســست بالام امى وابى ! ..

وعندما طلع النهار ذهبت الى امى وقلت لهــا : انا مش عاوزة جلابية على العيد .. جلابيتى القديمة حلوة قوى ونفسى البسها فى العيد ! ..

وبكت امى .. وراحت تمطرنى بقبلاتها .. وشعرت وانا محاطة بذراعيها ، اننى ارتدى اجمل فستان فى الدنيا ! ..

◎✣◎

ومن الصور التى تعيش فى ذاكرتى صورة ابى وهو جالس على الارض يعلم اخى قصة مولد النبى والقصائد والتواشيح ليساعده فى عمله الاضافى الذى يقوم به .

واذكر اننى لم اكن اهتم بالجهود التى يبــذلها ابى لتعليم اخى وتحفيظه هذه القصائد ، كنت فى شغل عنها باللعب مع اجمــل فتاة فى الدنيا : عروسة جدتى ! ..

ولكن يظهر ان التكرار بدا يتحكم فى ذاكرتى ، لاننى بدات وعمرى خمس سنوات اقلد ابى من وراء ظهره .. اقلده وهو يعلم اخى خالد ! ..

وفى احد الايام ضبطنى ابى ! ووقف وراء الباب يرقبنى وانا اقلده ! فلما انتهيت من تقليده قال لى : تعالى معايا الى حفـــلة شيخ البلد ! ..

قلت له : لا .. موش عاوزة اروح ! ..

فراح ابى يغرينى بالكراملة التى احبها ، فعاندت ورفضت !.

ولكن لما بدأ يلوح لى بصحن المهلبية الذى اعشقه ذاب عنادى ووافقته على ان اذهب معه الى الحفلة !..

وكانت الحفلة مزدحمة بالناس .. فقدبلغ عدد الذين حضروها حوالى خمسة عشر شخصا .. وكان هذا العدد بالنسبة لى هو الزحام الضخم ! ..

وطلب منى ابى ان اجلس بجانبه على الكنبة الخشبية واغنى كما هى عادة المغنية فى ذلك الوقت ! ولكنى رفضت الجلوس ، واصررت على الوقوف فوق الكنبة .. وبدات اغنى ! ..

ولم يساورنى الخوف ! لم اضطرب امام الجماهير ! لقد وقفت وغنيت بلا اهتمام وكانى اغنى لعروستى الصغيرة ! ..

اننى اخاف اليوم من الجمهـــور الذى يعرفنى واعـرفه .. واحسب له الف حساب وانا اواجهه .. لكن لما كان عمرى خمس سنوات كنت اكثر ثقة بنفسى من اليوم ! ويظهر ان التجـربة هى التى تعلمنا الخوف !..

وبعد خمس دقائق انتهيت من غنائى ، وســمعت لاول مرة فى حياتى تصفيق الناس ! ولكن هذا التصفيق لم يهزنى ! فقد التفت الى ابى وقلت له فى لهفة : فين بقى اللى قلت لى عليه ؟ فين «طبق المهلبية » ؟ ! ..

⊙❖⊙

وكان بين الذين حضروا هــــذه الحفـــلة بعض اهالى مركز السنبلاوين الذين طلبوا من ابى احضارى معه الى حفلتهم المقبلة.

وذهبنا الى السنبلاوين مشيا على الاقدام .. مشينا ثلاثة كيلو مترات . وتناوب افراد التخت حملى على اكتافهم كلماشكوت من التعب !

وقادنا صاحب الحفلة الى منزله الصغير .

لم ادخل المنزل وحدى ! ..

كنت احتضن قطتى الصغيرة التى كانت تؤنسنى ، وتبدد وحدتى كانت هذه القطة صديقتى ! كنت احدثها عن متاعبى الصـــغيرة واحلامى الكبيرة .. وكانت تنصت الى باهتمام !..



الشيخ ابراهيم ٠٠ والد ام كلثوم

وفجاة تركتنى القطة ودخلت تحت كنبه من الخشب ! فزحفت وراءها وجلست معها تحت الكنبة ! ويظهـــر انى جلست تحت الكنبـة مدة طويلة .. فقد راح والدى يبحث عنى دون جدوى !

ولما خرجت القطة من تحت الكنبة ، خرجت وراءها ! وتلقفنى والدى واجلسنى بجانبه وطلب منى ان اغنى ! ورفضت للمـــرة الثانية ان اغنى جالسـة .. اصررت على الوقوف ! ..

وكان جمهور هذه الليلة اكبر من جمهور الليلة السابقة .. كان عددهم عشرين شخصا ! ولكنى لم اشعر بهـذا الجمهور الكبير ولم اهتم به ! كنت اغنى وانا احلم .. كنت احلم بطبق المهلبية الذى ينتظرنى ! ..

وتوالت الحفلات ..

ولم اسمع من ابى وامى فى يوم من الايام شكوى بصوت مسموع من الفقر والحرمان الذى نعيش فيه ، كانا يحاولان دائما اخفـــاء الضيق عنا .. وكانا لا يكشفان عن هذا الضيق الا بهمسات بعد صلاة الفجر ، عندما يتصوران اننى واخى نائمان لا نسمع شيئًا !

ولكن هذه الهمســات الحزينة عاشت معى ! كانت تدوى فى اذنى كنت اتصور ان ازمة امى وابى فوق قدرتى ! كنت اتصور ان كل ما استطيع ان اقدمه لامى ، هو ان اتطلع الى الســـماء واقول : يارب ساعد امى ! ..

ولم يخطر ببالى اننى سأســـتطيع فى يوم من الايام ان اكسب قرشا اساهم به فى تخفيف أزمات امى ! ..

ولكن فى ذات ليلة وجدت فى يدى كنزا ! ..

◎❖◎

لقد اعطانى صاحب الحفلة الذى غنيت عنده قطعة فضية من ذات العشرة القروش ! واطبقت اصـــابعى الصغيرة على القروش العشرة فى حرص ، وكأننى أمسك الدنيا كلها بيدى ! ..

عشرة قروش !..

لقد بدت لى فى تلك اللحظة أنها اكثر من مال قارون ! وتصورت ان العشرة القروش التى اقبض عليهـــا باصـــابعى ، ستحل كل ازماتنا المالية ! ..

لقد شاءت الظروف بعد ذلك ان امسك باصابعى الوف الجنيهات .. ولكن هذه الالوف لم تهزنى ولم تبهرنى ، كما هزتنى وبهرتنى العشرة القروش ..

وحملني احد المشـــايخ على كتفه ليعود بي الى القـــرية ! واستغرقت في نوم لذيذ مريح وانا قابضة بكل قوتي على الثروة الضخمة ! ولما وصلت الى امي ، فتحت أصـــابعي واعطيتهـا مال قارون ! واحسست بذراعيها وهي تضمني في حنان .. واستغرقت في نوم عميق لذيذ ..

ثم بعد ابي يعصر جهوده على تدريب اخي خالد على الغنـاء .. بدا يدربني انا ايضا !

وذاع صيت الطفلة الصغيرة في القرى المجاورة ! وخرج هـــذا الصيت وراء الحدود .. حدود القرى المجاورة ! وطالت المسافات التي كان يجب ان نقطعها مشيا على الاقدام .. وارتفع دخلنا حتى اصبح في قدرتنا ان نركب قطار السكة الحديد .. ولكن في الدرجة الثـالثة !

ومازلت اذكر السعادة التي شعرت بهـا وانا اركب القطار لاول مرة في حياتي . كان القطار المسافر من محطة السنبلاوين الى محطة ابو الشقوق . ودخلت عربة القطار ، ووقفت على المقعد اطل من النافذة ، ووالدي يمسك بذيل ثوبي ! ثم فوجئت بمنظر غريب اثناء سير القطار ! لقد بدات اشجار النخيل واعمدة التلغراف تجـــري امامي ! لقد هزني هذا المشهد العجيب الى درجة انه لما وقف القطار في محطة « ابو الشقوق » ، امسكت بالنـافذة ورفضت النزول !

ووعدني والدي اني ساعود الى ركوب القطـــار غدا .. ولكني رفضت ان اصدقه ! وهنا اقسم لي بالله .. فصدقته ، ونزلت من القطار !

وذهبنا الى الحفلة .. وكانت مقصورة على القادرين ، فأن ثمن التذكرة كان قرشا !

وافتتحت الحفلة بخناقات بين الجمهور استغرقت ساعة كاملة وبدأت اغني التواشيح .. فعاد الخناق ، واستمر ساعة اخرى

ودامت الحفلة اربع ساعات منها ثلاث ســاعات ونصف ساعة خناقات ومعارك بين المتفرجين واستغرق الغناء نصف ساعة فقط!

وكانت الخناقات والمعارك من لوازم الافراح في الريف .. ولهذا كان محصولنا الغنائي لايتجـــاوز عادة اكثر من نصف ساعة ..

وفي بلدة « ميت رومي » في البحر الصغير بشمال الدلتا وقعت لنا مفاجاة لم نحسب حسابها !

بدانا الغناء ، فلم يتخانق احد ! تركنا الجمهور نغنى بلا مقاطعة ولا معارك ! وغنينا كل ما عندنا فى نصف ساعة .. والمفروض أن تستمر الحفلة الى الفجر ! وتصور ابى ان ساعته قد توقفت .. ثم رأى العقرب يتحرك ! وحار ابى وافراد التخت كيف يواجهون هذه المفاجأة ! وقرر ابى أن نعيد على المستمعين نفس التواشيح التى سمعوها منذ نصف ساعة ! ولم يحتج الجمهور على الاعادة والتكرار

ورحنا نعيد نفس التواشيح للمرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة !

وبعدها بدا والدى يستعد للمفاجآت .. بدا يستعد للحفلات التى لاتتعارك فيها الجمهور ولا يتضارب ! وبدأ يمرننا على حفظ اغانى جديدة زيادة على الاغانى التى كنا نكررها فى كل حفلة ولا تستغرق فى مجموعها اكثر من نصف ساعة !

وفى ذات يوم ذهبنا الى الغناء فى قرية مجاورة للقرشية بالقرب من مدينة طنطا .

وقبل بدء الحفلة قادنا صاحبها الى السرادق الذى سنغنى فيه .. واشار الى فانوس ، وقال لنا : لما ينكسر الفانوس ده .. ادخلوا الحجرة دى !

ولما ظهرت على وجه ابى علامات الدهشة قال الرجل : بقى انا لاباجوز ابنى ولا بنتى ! جايبينكم علشان اهل البلد المجاورة يحضروا نقوم نضربهم !

ولما بدات اغنى ، كنت اغنى للفانوس ! كنت اقول للفانوس : سبحان من ارسله رحمة لكل من يسمع ، أو يبصر ! وكنت اركز عينى وعقلى وكل حواسى فى هذا الفانوس .. حتى اهرب عندما ينكسر !

وفعلا انكسر الفانوس !

وبدا الضرب بالعصى والنبابيت !

وبعد انتهاء الخناقة خرجنا من المخبا .. وفوجئنا بان اهل القرية المجاورة هم الذين ضربوا الذين اعدوا الكمين لضربهم !

⊙❖⊙

ولم تكن متاعبنا مقصورة على المعارك والخناقات .. كانت بعض متاعبنا بسبب بساطة بعض أهل الريف .

وحدث أن اتفق معنا اهالى قرية مجاورة لمركز نبروه على احياء فرح فيها .. ومشـــينا عدة كيلو مترات من قريتـــنا الى مركز السنبلاوين ، ثم ركبنا القطار الى المنصورة ، ثم ركبنا قاربا صغيرا عبر بنا النيل الى طلخا ، ثم ركبنا قطار الدلتا الى نبروه .

ولم نجد أصحاب الفرح فى انتظارنا كما هى العادة .

وبرر والدى هذا التصرف بأنه لابد ان اهل الفـرح انشغلوا فى اعداد الفرح .

واستأجرنا مطايا « حميرا » ، وذهبنا بها الى القرية التى سيقام فيها الفرح ، وسألنا عن بيت صاحب الفرح فقادونا اليه .

ودار الحديث التالى بين والدى وصاحب الفرح :

والدى : أنتم نسيتونا والا ايه ؟..

وسكت صاحب الفرح

والدى : يعنى لم ترسلوا « ركوبة » الى المحطة !

وسكت صاحب الفرح ، وظهرت على وجهه علامات الدهشة .

والدى : موش النهارده الخميس .. ميعاد الفرح ؟

فأجاب صاحب الفرح ببساطة :

ــ ما احنا اجلناه !

والدى : اجلتم ايه ؟

ــ اجلنا الفرح !

والدى : طيب ما ارسلتش لنا خبر ليه ؟

وعادت الدهشة الى وجه صاحب الفرح وقال : كل البلد عارفه ان الفرح تأجل ! ولد يا خليل ؟ ولد يا حسين ؟ ولد يا ســـيد ؟ موش احنا اجلنا الفرح ؟

وهز القرويون خليل وحسين وسيد رؤوسهم بالموافقة .

وقال صاحب الفرح ببساطة : شايفين ! كل الدنيا عارفه اننا اجلنا الفرح !

ورجعنا كما حضرنا ! عدنا الى محطة نبروه ثم ركبنا قطار الدلتا الى طلخا ، ثم عبرنا النيل بالقارب الى المنصورة ، ثم ركبنا القطار الى السنبلاوين ، ثم مشينا على الاقدام الى قريتنا الصغيرة !

وكان والدى يتتبع باهتمام تصرفات كبار المطــربين والمطربات حتى اقلدهم وأوهم الناس اننى مطربة كبيرة !

واكتشف ابى ذات يوم اكتشـــافا هاما ! اكتشف ان الشروط الغنـــائية تنص على أن المطرب « الصييت » الشيخ حسن جابر يشرب الكازوزة فى الحفلات ! فأضاف الى عقودنا بندا جديدا يتعهد صاحب الحفلة بتنفيذه ..

وكان هذا البند هو ان يتعهد الطرف الاول بأن يقـــدم للطرف الثانى « أم كلثوم » زجاجة كازوزة !

ومافيش حد أحسن من حد !

وكنت سعيدة بحياتى ! سعيدة بالحمار الذى اركبه ، وطبـــق المهلبية الذى التهمه .. وزجاجة الكازوزة التى اشربها !

وبدات شهرتنا تملأ الآفاق ! وكانت الآفاق هى القرى المجاورة لمركز السنبلاوين ! ووصل اجرى مع الفرقة التى تتألف من خمسة من المشايخ الى مائة قرش عن كل حفلة نقيمها !

وبدات شهرتنا تزحف !

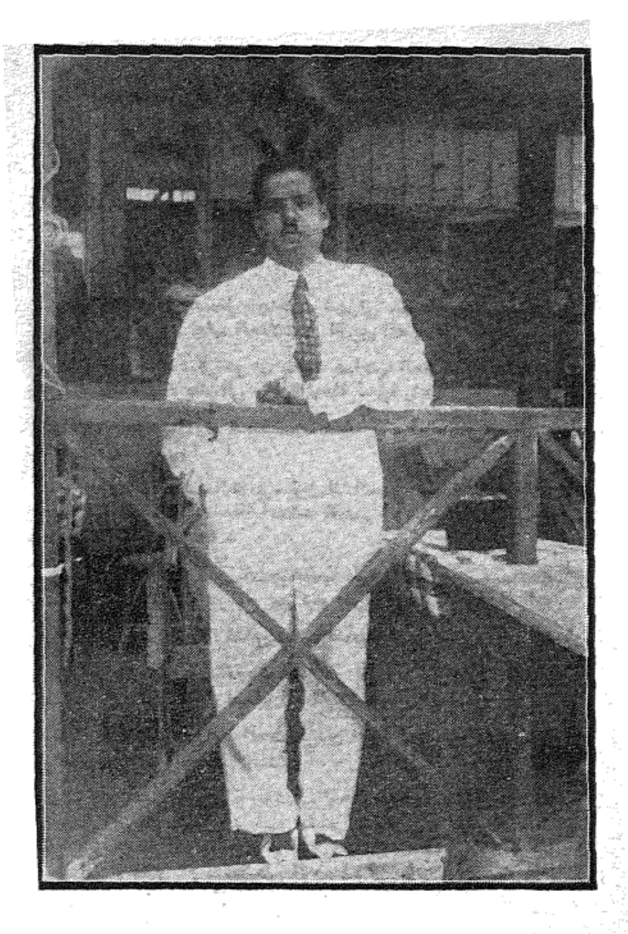
وعندما ارتفع اجر الفـــرقة من مائة قرش الى مائة وخمسين قرشا اصبحنا أثرياء ...

وراى ابى أن نقلد الاثرياء ! انهم يلتقطون لاولادهم صـــــورا فوتوغرافية .. فلماذا لانذهب نحن أيضا الى المصوراتى ؟

وذهبنا الى مصوراتى فى مدينة الزقازيق . واصيبت انا واخى بنوبة من الضحك أمام المصوراتى ! فقد كان المصوراتى يقف وراء الكاميرا تحت الملاءة السوداء وكان منظرا غريبـــا جعلنا نغرق فى الضحك !

وراح المصوراتى يرجو ابى ان يمنعنى انا واخى من الاستمرار فى الضحك حتى يلتقط الصورة .. فان اصـــول التصوير يومها كانت تقضى بألا يضحك ابدا صاحب الصـــــورة ! يجب ان يقف جامدا كالتمثال حتى يلتقط المصور صورته ! وبعد محاولات متكررة تحولنا الى تماثيل ! والتقطت اول صورة لنا !

وكان ابى غير مستريح لفكرة اشتغال ابنته بالغناء . كان لايمانع فى ان يغنى ولده .. أما أن تغنى ابنته فلا !



خالد .. شقيق ام كلثوم فى سنوات شبابه وهو يستجم فى راس البر ..
ان وفاة خالد سببت لام كلثوم اقسى ازمة نفسية عرفتها فى حياتها ..

وكان هذا هو السر فى المقال الذى وضعته على راسى عدة سنوات كان والدى يريد ان ينسى ان ابنتـــه هى التى تغنى ، كان يريد ان يوهم نفسه أن ام كلثوم ولد لا بنت !

« ومسحت » بقدمى الصغيرتين القطر المصرى قـرية قرية .. قبل ان اضع قدمى فى القاهرة .

وشاء حظى ان اترك فى كل قرية عـددا من المعجبين بصـــوت الطفلة الصغيرة !

وراى والدى ان يستغل نجاحى وشهرتى .. فاصر على فرض شرط اضافى على اصحاب الحفلات فى القرى المجاورة !

وكان الشرط الاضافى هو ان يتعهد صاحب الحفلة بان يقدم لنا حميرا تحملنا من قريتنا الى مكان الحفلة ذهابا وايابا !

وكان « الطرف الاول » ينفـــذ نصف الاتفاق .. ويهرب من تنفيذ النصف الثانى !

كان اصحاب الحفـــلات يرسلون لنا الحمير لتحملنا الى مكان الحفلة .. فاذا انتهت الحفلة اختفت الحمير ! وهـــكذا كنا نركب « ذهابا » ونمشى « ايابا » !

ولم تكن المسافات التى نقطعها مشيا على الاقدام مســـافات بسيطة .. كانت عادة تتراوح بين كيلو مترين وخمسة كيلو مترات

ولم يكن السير على الاقدام اصعب متاعبنا !

كان الانتظار على ارصفة المحطات هو تعبنا الاكبر ! فقد كنا فى كثير من الايام نقف على رصيف المحطة ١٢ ساعة كاملة !

كانت القطارات تمر امام المحطة مرتين ، مرة فى الساعة السادسة صباحا ، ومرة فى السادسة مساء !

وكنا بعد انتهاء كل حفلة نعود الى المحطة .. وفى كثير من الايام كنا نصل الى الرصيف بعد قيام القطار بدقائق .. فقـــد كانت قطارات زمان مع الاسف تتحرك فى مواعيد محـددة ! ! ولهذا كنا نضطر الى الانتظار ١٢ ساعة على الرصيف !

وكان الانتظار فى معظم الايام وسط البرد الشديد او تحت الامطار الغزيرة التى كانت تحرص على استقبالنا فى كل محطة نلجأ اليها !

وفى احد الايام عرف ابى سر مفتاح باب استراحة الركاب !

وكان المفتاح هو حنجرة ام كلثوم !

لقد اقنع والدى ناظر المحطة بأن يفتح لنا استراحة الركاب . وكان الثمن هو ان اغنى للناظر !

وغنيت على ارصفة مئات من محطات الوجه البحرى

وبدات اكتشف ان الدنيا اكبر من الوجه البحرى . وان هنـاك مدنا اخرى لا تقل اهمية عن المنصورة والزقازيق !

اكتشفت ان هناك مدينة جديدة اسمها القـاهرة ! اكتشفتها بمحض الصدفة !

فقد حدث فى اثناء حديث عابر بين الثرى عز الدين يكن وناظر عزبته ، ان قال صاحب العزبة انه سيقيم فى قصره بحلوان كعادته كل عام احتفالا بليلة المعراج ، فقال ناظر العزبة !

والله عندنا بنت صوتها حلو !

فقال صاحب العزبة : هاتها تغنى لنا !

وسافرنا مع ناظر العزبة لاول مرة الى القاهرة ! ولا اذكر شيئا عن المدينة الكبيرة . ان صورها الصـاخبة لم تعش فى ذاكرتى !

كل ما اذكره هو محطة باب اللوق ! ففى هذه المحطة اشترى لى والدى « كراملة » اعجبتنى وجعلتنى اتصـور ان القاهرة بلد « الكراملة » الحلوة

وذهبنا الى قصر عز الدين بك يكن ، وخـرج صاحب القصر لاستقبالنا ، ونظر لى من تحت الى فوق عدة مرات ثم سـال فى دهشة « هى دى اللى ح تقرا فى المولد » ؟

ولما هز ناظر العزبة راسه موافقا صاح عز الدين بك ! ايه لعب العيال ده ! بلاش كلام فارغ ! انزل مصر حالا ! ورروحوا هاتوا الشيخ اسماعيل سكر ! يحيى لنا الحفلة !

ووضعونا مع الخدم فى البدروم . ولم ادهش من هذه المعاملة ، ولم اشعر باى اهانة لحقتنا ! وجلسنا الساعات فى البدروم والشيخ اسماعيل سكر يغنى للمدعوين ! وبعـد ان اطرب الشيخ سـكر

المدعوين واطمان صاحب الحفلة على نجاح حفلته ، قال الثرى عز الدين يكن للخادم « هاتوا البنت تغنى .. ونشوف حتقول ايه ! »

وخرجنا من البدروم الى الدور الاول .

وصعدت الى كنبة وبدات اغنى !

واستعادنى الحاضرون عدة مرات ! واستعادنى معهم المطرب الكبير الشيخ اسماعيل سكر نفسه !

ثم جاءنى احد الخدم وقال لى : الست عاوزه تشوف البنت فى الحرملك !

وصعدت الى الحرملك انا واخى خالد .. وادخلونا صالونا كبيرا مليئا بالاثاث الفاخر .

وسمعنا صوتا يقول لنا : اتفضلوا !

وتلفتنا نبحث عن مصدر الصوت .. فلم نر احدا فى الصالون !

وعاد الصوت يقول لنا : اتفضلوا .. اتفضلوا !

وعدنا نبحث عن صاحب هذا الصوت فى ارجاء الصالون !

وعاد الصوت يقول : اتفضلوا .. اتفضلوا .. اتفضلوا !

وهنا راينا صاحب الصوت .. انه طائر فى قفص !

واصبت بالفزع وصرخت : غراب يتكلم ! غراب يتكلم !

وعدت مع اخى من الصالون فى فزع ! واصطدمت عند الباب بحرم عز الدين بك يكن وانا ارتجف من شدة الخوف !

وراحت تهدىء من روعى وتسالنى عن سبب فزعى ؟ فرحت اصرخ : غراب : غراب بيتكلم !

وضحكت صاحبة البيت وقالت لى انه ليس غرابا .. انه ببغاء .. والببغاوات تتكلم !

وعدت الى قريتى احدث اصدقائى وصديقاتى عن القاهرة بلد العجائب .. انها البلد التى تتكلم فيها الغربان !



«عندما نتعلم نعرف
مكاننا بين العلماء ..
وقد عرفت مكاني .. » !

أم كلثوم

من مذكرات أم كلثوم

قرار من أبي : لن نعود إلى القاهرة !

كنت اغنى بلا احساس ولا شعور !

كنت اردد الاغانى التى اسمعها من ابى بنفس الطريقة التى يردد بها التلميذ الصغير جدول الضرب ، وقواعد النحو والصرف !

ثم غيرنى فونوغراف !

كان فونوغراف العمدة ! فقد سمعت على هـذا الفونوغراف صوت الشيخ ابو العلا ، وهزنى صوته . كنت اشعر وانا اسمعه انه يغنى لى وحدى . وسمعت صوته مئات المرات وهـو يغنى ! افديه أن حفظ الهوى أو ضيعا ! وسمعته وهو يغنى «وحقك انت المنى والطلب » .. وقصيدة « غيرى على السلوان قادر »

كان الفونوغراف يسكت .. ولكن صـوت الشيخ ابو العلا كان يستمر يغنى فى اذنى !

كان اطفال القرية يرددون اغنية « انا نازلة ادلع املا القلل » . اما انا فكنت اعيش مع اغانى الشيخ ابو العلا ؛ وكنت اتصور انه قد مات ! لم يخطر على بالى ان صاحب هذا الصوت يعيش فى الدنيا التى اعيش فيها !

ومرت السنون ..

وفى يوم من الايام كنت فى محطة السنبلاوين ، فسمعت صوتا يقول : الشيخ ابو العلا هنا !

ولم اصدق اذنى !

ورايت ابى يسرع نحو الرجل الكبير ويصـافحه فى احترام . واسرعت وراءه وامسكت يده ، ورحت احدثه على الفور عن اعجابى وتحول الشيخ ابو العلا عنى ليستانف حديثه مع الاخرين .. ولكنى منعته من ان يكلم احدا غيرى ! امسكت يده ورحت الح عليه ان

يأتي معي لزيارتنا في القرية . واحس الرجل الكبير بتعلقي به ، وجاء معي الى بلدنا .. الى قرية « طماي » !

ودخلت الى امي . قلت لها : ان اهم انسان في الدنيا سيتناول معـ[illegible]ـاء . كل حاجة عندك قدميها له . ادبحي كل الفراخ اللي عندنا واللي عند الجيران !

كنت لا اصدق عيني ! كنت اتصور انني ارى « مناما » ولا اعيش في الحقيقة !

ولما جلست امامه طلبت منه ان يغني ! فطلب مني ان اغني له اولا ! ورفضت ! فقد شعرت انني لن اجسر على الغناء امام هـذا العملاق . واحسست انه ليس من المعقول ان اخدش اذني هـذا المغني العظيم بصوتي ..

ولكن ترددي ذاب امام قوة شخصيته . وبدات اغني له .. وبدأ هو يغني لي !

وشعرت ان في بيتنا اجمل احلامي .. واحسست بضربات قلبي وانا اسمع صوته ! كنت أسمع قيثارة أجمل من الفونوغراف .. فقد كان الشيخ ابو العلا اعظم مغن سمعته في حياتي . ولا يزال هذا رايي حتى اليوم انه احسن من غنى . واحسن من لحن المعاني قبل الالفاظ ..

وكان الرجل الكبير كريما معي . فقـد استمر يغني . استمر يغني لي وحدي مدة ساعات .

واقترح الشيخ ابو العلا على والدي ان يترك قرية « طماي » الصغيرة ، وينتقل الى القاهرة . فدهش ابي من هذا الاقتراح !

وقال والدي : ان طماي بلدنا واطياننا ومواشينا . ولايمكن ان نترك طماي !

ورد الشيخ ابو العـلا : ان مستقبل ابنتك اكبر من « طماي » .. وحرام ان تحبس هذه الموهبة في قرية صغيرة !

ولاول مرة في حياتي بدات اناقش والدي !

وغير ابي موضوع الحديث !

ولكنني رحت « ازن » والح وارجـو . وعاد ابي يغير موضـوع الحديث !

ولكنى لم اتعب من « الزن » والالحـاح ، الى ان وقع لى حادث مسح فكرة الاقامة فى القاهرة من كل احلامى !

فقد اتفق احد اهالى القاهرة مع ابى على ان اغنى فى فرح ابنـة فى كوم الشيخ سلامة المجاور لحى العتـة الخضراء بالقاهرة .

وعند سفرى الى القاهرة اخذت معى « تحويشة العمر » .

انها الخمسـة عشر جنيها التى ادخرتها من مصروفى « وعيدتى » فى الاعياد .

ونزلنا فى بيت صغير .. انه بيت صاحب الفرح .

وقبل خروجنا من البيت لاحياءالحفلة ، وضعت ثروتى الضخمة فى جيبى .

ولما انتهت الحفلة وعدت الى البيت ، اسرعت الى تحويشة العمر لاخرجها من جيبى .. فلم اجدها ! اختفت تحويشـة العمر التى تصورت اننى سأشترى بها مدينة القاهرة كلها !

ولم اصدق عينى ! ورحت ابحث فى جيبى وجيب اخى ، وتحت الكرسى .. فلم اجد لها اثرا ! ولم اذرف الدموع . كانت نـكبتى اقوى من الدموع !

واخفيت الحـــادث عن ابى فى اول الامـر .. ثم اضطررت ان اعترف . ولن اقول الان ما قاله ابى لى وقتها .

وعاهدت نفسى الا ازور القاهرة بعد ذلك .

ولكن نداء القاهرة كان اقوى من ضياع اموال قارون !

فقد عدنا للقاهرة مرة اخرى . واقمنا فى حجرة بلوكاندة جوردون هاوس » التى تطل على شارع فؤاد (٢٦ يوليو الان) . ومن شرفة حجرتى بهذا الفندق رايت السينما لاول مرة فى حياتى ! فقد كانت تطل على سينما « جوزى بالاس » . رايت رجالا ونساء يتحركون على الشاشة البيضاء . رايت شابا يقبل فتاة . رايت دنيا غريبة لم اشهدها لا فى طمـاى ولا فى الزقازيق .. ولا حتى فى المنصورة !

ولم يخطر ببالى وانا واقفة فى شرفة حجـرتى بفندق جوردون هاوس ان ام كلثوم نفسـها ستظهر فى يوم من الايام على هــذه الشاشة البيضاء !



ام كلثوم تعزف على العود ، صورة خاصة التقطت لها سنة ١٩٢٦

وكان فى حجرتنا بالفندق ثلاثة سراير .. لابى ولاخى ولى .

وكنت اتصور ان هذا الفندق المتواضع هو أكبر فنادق القاهرة . فلم اكن يومها قد سمعت عن شبرد وسميراميس !

وكانت بحجرتنا الصغيرة شرفة تطل على شارع فؤاد ، وشرفة اخرى تطل على المدرسة الاعدادية . وكان الشيخ ابو العلا يحضر الى زيارتنا ، وأجلس بجانبه استمع الى كلامه وغنائه .

كنت اسهر طوال الليل اسمع أحب الاصوات الى قلبى ! فقد كان غناؤه احب لى من النوم !

وفى احدى الليالى ونحن جالسون فى الشرفة غنى لى الشيخ ابو العلا ثم التفت الى وقال : أنا غنيت لك كثير .. ما تغنى لى بقى

وغنيت له !

وسكت الشيخ طويلا .. ثم رأيت دمعة تسقط من عينه ؛ ثم قال : لن افترق عن هذا الصوت طولَ عمرىَ !

وفعلا : لم نفترق منذ تلك اللحظة . كان يصحبنى مع ابى واخى فىْ كل حفلاتى وفى كلَ مكان اذهب اليه .

وغيرنى الشيخ ابو العلا . علمنى ان افهم الكلام قبلَ ان احفظه واغنيه '

فقد كنت حتى هذه اللحظة مثل ببغاء الشرى عز الدين يكن ؛ أردد الكلام بلا فهم ولا اهتمام !

وبدات الكلمات غير المفهومة تتعثر فى فمى ، وترفض الخروج من شفتى !

وفى احدى الليالى كنت اغنى مع افراد الفرقة : جللَ من طرز الياسمين فوق خدك بالجلنار ، واصطفى ذا الجمان الثمين معدنا من لمالك العقار !

ووقفت كلمة « الجمان » فى فمى ، ورفضت الخروج من بين شفتى ! وتركت باقى أفراد الفرقة ينطقون الكلمة وحدهم !

وتصور ابىْ اننى نسيتها ، فلم يعر الامر اهتماما !

ولما تكرر وقوفى عند كلمة « الجمان » أحس والدى بأن المسالة ليست مسألة نسيان ، فسألنى ، لماذا لا اغنى هذه الكلمة .

واجبته : موش عارفة اقولهــا ازاى ! موش عارفة اقولها وانا باضحك والا اقولها وانا مكشرة .. انا موش فاهمة معناها ايه !

وكانت هذه هى المرة الاولى التى اواجه فيها والدى بما تعلمته من الشيخ ابو العـــلا .. وهو انه يجب ان افهم المعانى قبل ان اغنى الكلمات !

وعن طريق الشيخ ابو العلا عرفت الشاعر احمد رامى !

فقد التقى احمد رامى بالشيخ ابو العلا ذات يوم ، وساله : فيه بنت بتغنى اسمها ام كلثوم .. ايه رايك فيها ؟

فأجاب ابو العلا : دى بتقول لروحها « آه » !

وفى احدى حفلاتى بحديقة الازبكية اقترب منى شاب وقال لى : انا أحمد رامى !

ورايت امامى لاول مرة الشاعر الذى اغنى اشعاره !

واردت ان اقول لهذا الشاعر : اهلا .. فغنيت له قصـــيدته « الصب تفضحه عيونه » .. وكانت مفاجأة له .. !

وكان رامى يحب الغناء .. وكنت أعشق الشعر .

وكانت هوايتى للشعر قد بدات بكتاب وجدته مع اخى ! اخذته

منه لاتفرج عليه . كان الكتاب هـــو قصة « العبرات » لمصطفى لطفى المنفلوطى !

وامسكت الكتاب لاتفرج عليه ، واعيده الى اخى !

وفتحت الصفحة الاولى .. ولم اترك الكتاب الا بعد ان وصلت الى الصفحة الاخيرة . وعشقت المنفلوطى . قرات له « النظرات » و « العبرات » وكل القصص التى كتبها !

◎❖◎

وفى احد الايام شعرت بجوع للقــراءة . أردت ان اقرأ . رحت اقلب كتب القصص التى توجـــد فى بيتنا الصغير ، فوجدت اننى قراتها كلها . قراتها عشرات المرات . وبدات أبحث عن كتاب جديد وفى تلك اللحظة بدات هوايتى للشعر . كنت احفـــظ الشعر ولا افهمه . كنت اتصوره كلمات موزونة يعدها الشعراء للغناء .

وفى احد الايام ، رحت ابحث فى حجرتنا الصغيرة عن كتاب اسلى به نفسى . وفتحت ديوان شعر ابن الفارض . وقرات البيت الاول فى القصيدة .. ففهمته . ورحت اقرا باقى القصيدة فى لهفة .

وبعد ديوان ابن الفارض قرات ديوانى ابن الرومى والبحترى . ثم قرات الاغانى الذى يتالف من ١١ جزءا ، واخترت منه قصائد جديرة بأن تغنى .

ثم قرات « الامالى والحماسة » . وبدات اشترى دواوين الشعراء بعد ان كنت استعيرها من ابى . وقرات ديوان المتنبى والشريف الرضى ومهيار الديلمى .

واصبحت اعشق الشعر !

اصبحت اقرا القصيدة بنفس اللهفة والمتعة والشغف التى تقرا بها فتاة اول قصة غرامية !

حمد رامى الفضل كل الفضل فى تذوقى الشعر وتفهم معانيه . كان يقدم لى فى كل مرة يزورنى فيها ديوان شاعر .

وتعلمت موازين الشعر ، لدرجة اننى بدات احس بالبيت المكسور ، والبيت الذى يقف على قدميه !

ولكنى لم افكر فى يوم واحد ان انظم بيتا واحدا من الشعر . لعل السبب هو كثرة قراءاتى .. ولاننى قرات الشعر الجيد وتذوقته .

ولولا قراءاتى لحاولت ان انظم عددا من القصائد اعبر فيها عن مشاعرى . ولكننا عندما نتعلم نعرف مكاننا بين العلماء . وقد عرفت مكانى !

واستمرت صداقتى باستاذى الشيخ ابو العلا سنين طويلة . كنت ابحث عنه فى كل مكان لاستظل برعايته واستاذيته وكنت اطالبه فى كل مرة نلتقى فيها بان يغنى لى ! كان غناؤه هو غذاء روحى

وفجأة .. ثقل لسانه ، واصبح يتعثر فى نطق الكلمات .. ومع ذلك كان يغنى لى ! وعندما يخونه صوته اثناء الغناء كان يقول لى :

انت عارفة انا عاوز اقول ايه !!

وفى احدى الليالى فوجئت بوفاة الشيخ ابو العلا ..



ام كلثوم سنة ١٩٢٦ ، صورة لاتوجد منها نسخة ايضا عند ام كلثوم ..

وامتلأ راسي بقصائد الشعراء .. بعد ان امتلأت روحي باغاني الشيخ ابو العلا .

ولم استطع ان ابقى فى بيتي .

ولم احتمل ان اذهب الى بيته !

مشيت فى شوارع حى الزمالك شارعا شارعا ؛ ولم اذرف دمعة واحدة !

مشيت الى شارع فؤاد ثم الى شارع الملكة نازلى ، ثم عدت امشي فى شوارع الزمالك مرة اخرى ! كنت اتصور انني سأغسل شوارع القاهرة فى تلك الليلة بدموعى . ولكن دموعى تحجرت فى عينى .

وكان يمشي معى اخى خالد وعازف الكمان سامى الشوا . كانا يحاولان اقناعى بالبكاء تحت اى سقف . ولكننى كنت ارفض .

وقضيت الليل هائمة على وجهى . ابكى بغير دموع استاذى الذى علمنى كيف اعبر عن المعانى بالنغمات

⊙❖⊙

وتعرفت بكبار الموسيقيين وبالاستاذين حسنى انور وامين المهدى وهو ابرع من عزف على العود .. ونشأت بيننا صداقة عائلية .

واثناء اصطيافى بالاسكندرية زارنى امين المهدى ودعانى لزيارة بيته الذى يطل على ترعة المحمودية . وفى هذا البيت التقيت باول صديقة لى .

كانت تلميذة فى « الميردى دييه » . وكان اسمها روحية المهدى انها ابنة امين المهدى .

لقد اصبحنا صديقتين بعد ساعة من اللقاء . احسسنا تجاوبا عجيبا ، شعرت كل منا انها تعرف الاخرى منذ سنوات وسنوات !

وبدات صداقتنا تقوى على مر الايام .

ولما انتهت شهور الاصطياف وعدنا الى القاهرة كنت احرص على زيارة بيت امين المهدى كل يوم احد . فقد كان يوم الاحد هو اجازة روحية من مدرستها .

وكانت روحية تقيم في بيت بباب الخلق يواجه دار الكتب . وفي كل اسبوع كنت اقطع المسافة من شقتي بعمارة بهلر بالزمالك الى ميدان بباب الخلق لالتقي بصديقتي التلميذة وافتح لها قلبي وتفتح لي قلبها ، وتحدثني عن احلامها واحدثها عن احلامي .

وكانت القاهرة بالنسبة لي هي الطريق من الزمالك الى باب الخلق . فقد كنت لا اخرج من بيتي الا لاذهب الى روحية يوم الاحد ، او لاذهب في المساء الى حديقة الازبكية لاغني او عندما اذهب في الليل الى الفرح الذي ساغني فيه .

وفي خلال السنوات الاربع الاولى التي امضيتها في القاهرة .. كانت العاصمة بالنسبة لي هي شارع فؤاد « ٢٦ يوليو الان » وميدان قصر النيل وميدان عابدين وميدان باب الخلق .

في خلال السنوات الاربع لم ادخل السينما مرة واحدة !

في خلال السنوات الاربع لم ادخل محلا تجاريا مشهورا او مطعما كبيرا .

في خلال السنوات الاربع لم ادخل الا مسرحا واحدا هو مسرح الماجستيك ، فقد كان والدي يحب روايات علي الكسار

وكانت معلوماتي عن القاهرة هي ما اقرؤه في الصحف والمجلات ، واسمعه من الناس .

ومع هذا الحصار الذي كنت اعيش فيه ، احببت القاهرة وعشقتها . كنت احس انني اعيش في اجمل بلد في الدنيا . احببت اهلها .

وجدت في هذه المدينة الحلوة ضمانا واهتماما وتشجيعا. وجدت فيها مجدا لم يخطر لي على بال !

وفي يوم من الايام عاد والدي الى بيتنا وهو متجهم الوجه .. ودخل حجرته .. ونادى على والدتي ، فدخلت واقفلا الباب .

وسمعت همسا لم اهتم به .

ولكني رايت امي تفتح الباب ، وتبدا في حزم الحقائب .

وسالت امي ! ماذا جرى ؟

فسكتت ولم ترد .. استمرت تملأ الحقائب بالملابس .

وسالت والدى ، فقال بحزم : خلاص ! احنا راجعين بلدنا ! لن نبقى فى مصر بعد الآن .. ولن نعود اليها !

ودهشت من هذا القرار العجيب !

كيف نهجر القاهرة وقد التقيت فيها بمجد لم احلم به . كيف اهجر « ام الدنيا » بعد ان احببتها واحببت من فيها ، وبعد ان التقيت فيها بحظى .

ورحت الح على والدتى ان تبرر لى قرار والدى ! رحت اقول لها اريد ان اعرف لماذا سنهجر القاهرة .

واشارت لى والدتى الى مجلة ملقاة على الارض .

والتقطت المجلة . انها مجلة « المسرح » التى يصدرها الناقد المسرحى عبد المجيد حلمى .. ورحت اقلب صفحات المجلة فى لهفة .. فلم اجد ردا على سؤالى .

وعدت اقراها سطرا سطرا .

ثم سقطت المجلة من يدى !

لقد نشرت المجلة خبرا عجيبا عنى ! كان خبرا كاذبا عن سمعتى ولكن المرحوم عبد المجيد حلمى كان يعجب فى ذلك الوقت بالسيدة منيرة المهدية . وبدلا من ان يقدم لها باقة ورد .. رمى تحت اقدامها شرف المطربة الجديدة !

ولكن .. هل من العدالة ان يضحى ابى بمستقبلى بسبب خبر كاذب ؟

هل من العدالة ان تدفع الضحية ثمن سكينة الجزار ؟

ان والدى يعرف ان الخبر لا اساس له من الصحة .. فهل الطريقة للاحتجاج على الخبر ان نجمع ملابسنا ونهاجر الى قرية طماى ؟

ورحت استنجد باصدقاء ابى !

رحت ارجو كلا منهم ان يحضر لاقناع ابى بالعدول عن الهجرة من القاهرة .

وجاء الاصدقاء الى بيتنا ليحاولوا اقناع ابى بالبقاء فى القاهرة

قالوا له ان ابنته اصبحت مشهورة ، وان للشهرة ضرائب يجب ان يدفعها صاحبها ! واولى هذه الضرائب ان يحتمل نشر الاكاذيب التى نشرها عنه بعض المجلات الصغيرة .

ورفض ابى وساطة هذه الوفود . اصر على الهجرة الى قريتنا « طماى » .

وعندها استسلمت للامر الواقع . وجلست فى حجرتى اكتب خطابات وداع لصديقاتى ومعارفى . كنت اكتبها بدموعى .

وبين الخطابات التى كتبها خطاب عصرت فيه قلبى ! ارسلته الى صديقتى التلميذة فى مدرسة « الميردى ديه » . لقد كتب هـذا الخطاب بدموعى . حدثتهـا عن قرار ابى . ورحت أودعها واودع القاهرة الحبيبة .. وكأننى اودع الدنيا كلها !

وجاءت أسرة المهدى الى بيتنا .. فوجدوا الحقائب معدة !

وتكلمت سـيدات الاسرة ، ورحن يناقشن والدى فى قراره فى بلاغة وحكمة ومنطق .

ولم يقتنع ابى !

ثم ركزن سـهامهن على عاطفة ابى وحبـه لى . قلن له ان قراره سيقضى على مستقبلى ! سيدفن المجـد الذى كان ينتظرنى تحت تراب قرية طماى .

ولم يقتنع ابى .

واخيرا تكلم امين المهدى ..

قال لابى : ان معنى مغادرتكم القاهرة ان الخبر الذى نشرته مجلة المسرح » عن أم كلثوم هو خبر صحيح .. فالنـاس تهرب من الحقيقة ، ولا تهرب من الاكاذيب !

وقام ابى من مقعده .. وبدا يفتح حقائبنـا ويخرج منها الملابس

وحتى تلك اللحظة كنت اقيم فى القاهرة فترات متقطعة ، ثم اعود الى الريف ..

اما الآن ، من هذه السنة ـ ١٩٢٦ ـ فقد بدات اقيم فى القاهرة بصفة اساسية .. ولكنها كانت اقامة صعبة جدا فى البداية ..

◎◇◎

انتهى الجزء الاول من مذكرات ام كلثوم ..

والسؤال الآن : كيف كانت القاهرة سنة ١٩٢٦ ؟ القاهرة التى ستشهد من الآن فتاة قروية .. ترتدى عقالا وبالطو ازرق .. وتغنى المدائح النبوية ؟ ..

سؤال يجيب عليه الفصل التالى ، قبل ان نعود من جديد الى مذكرات ام كلثوم ..

□ □ □



في القاهرة غناء للرجال وغناء للنساء • في القاهرة موسـيقى للفقراء ، وموسـيقى للاغنياء ؟

القاهرة ٢٦

القاهرة .

١٩٢٦ .

البيضة فى مصر بمليم .

رطل اللحم بقرشين . مشفى بثلاثة قروش .

علبة السجاير ماركة « العنبرول » بقرشين .

الاوتوموبيل الفاخر خمسة محلات بـ ٣٦٠ جنيها .

الرواية المقررة على طلبة البكالوريا هى زهراب ورستم .

على افندى الكسار بربرى مصر الوحيـد يمثل رواية البربرى فى الجيش .

نابغة مصر فى التمثيل يوسف وهبى يقوم بطولة رواية الذبائح .

المستر سمسون رئيس النيابة المختلطة بالمنصورة يحضر حفل مدرسة المنصورة الاميرية

و .. نحن فى سنة ١٩٢٦ ..

السكان فى القطر المصرى كله عددهممحدود . بالضبط ١٢مليونا و٢١٧ الف نسمة . من بين كل مائة من السكان فى مصر هناك ٢٦ يموتون بعد سنة من مولدهم . المرض وسوء التغذية سبب ذلك.

الذين يعرفون القراءة والكتابة فى مملكة مصر ــ مجـرد القراءة والكتابة ــ عددهم ١٩٧ فردا فى كل الف من السكان .

الصحف فى مصر محدودة . الاخبار فيها محدودة ايضا . منها تلك العناوين المنشورة فى مقدمة هذا الفصل .

من الاخبار التى تبرزها مجلة « الطائف المصورة » ايضا . خبر يقول « .. يشاع ان الحكومة المصرية تنوى فتح نفق من السيدة زينب الى محطة باب الحديد لمرور سكة حديد حلوان تحت الارض بعد أن تتحول قاطراتها من بخارية الى كهربائيــة » . ان الزحام سبب فى هذا المشروع . بطء القطارات سبب آخر . ان السفر بالقطار من القاهرة الى الاسكندرية يستغرق سبع ساعات . لهذا يسمون القطار « المستعجلة » !

نفس المجلة تنشر على عرض صفحة كاملة منها صـــورة كتبت تحتها قائلة « هذه صورة اتحفنا بها المصور الشهير الخواجة زولا لحضرات اعضاء لجنة الاحتفال بتكريم فخامة المندوب الســـامى جورج لويد واللادى قرينته بصفته ممثلا لانجلترا صديقة مصر الذى نحيى فيه رسول السلام بين الشعبين » !

هذه واحدة من مظـــاهر كثيرة لتفسخ المجتمع المصرى فى تلك الفترة . فبعد ثورة عظيمة قام بها الشعب سنة ١٩١٩ بدات مصر تحارب نفسها .. بينما يتفرج عليها محتل غاصب وحاكم مستبد

ولقد ادى انتكاس الثورة الى تفشى ظواهر مرضية فى المجتمع المصرى ..

فالانتهازيون والوصوليون منتشرون فى الحياة العامة . لخصهم سيد درويش منذ سنوات عندما غنى فى اوبريت « العشرة الطيبة » علشان ما نعلى ونعلى ونعلى .. لازم نطاطى نطاطى نطاطى !

والصراع دائر علنا بين الاحتلال ومجموعة من المثقفين الشـــان انتجتهم ثـــورة ١٩١٩ منهم طه حسين وتوفيق الحكيم والعقـــاد ومحمد حسين هيكل ، وفكرى اباظة .

والشكوى عامة من الانحلال الاخلاقى . بسببها نشرت المجلات صورة لـ « .. نفر من اعضاء جمعيـــة الشرف التى تأسست فى القاهرة لنشر الفضيلة ونصح الشبان بالابتعاد عن الرذيلة » .

والرذيلة لها جمهور واسع يغذيها .

من هذا الجمهور الجنـــود الانجليز الذين يمرحون فى شـــوارع مصر ويسهرون لياليها . اماكن السهر تنحصر بين ميدان الاوبرا فى القاهرة وبين شارع عماد الدين والفجالة . فى شارع عماد الدين تستطيع ان تشرب البيرة والويسكى . اذا اردت « العرقى » فاتجه

الى الفجالة . « البوظة » فى شارع كلوت بك . على امتداد هذه الشوارع تستطيع ان تقرا هذه اللافتات « خمارة مانولى » ، « بار خرستو » ، مقهى « كوستى » ، بار « بنايوتى » خمارة « خرالمبو »

واذا سرت فى شارع محمد على تجد على يمينك وعلى يسارك دكاكين صغيرة علقت على جدرانها آلات الطرب من عود ورق ودربكة فوق الدكاكين اعلانات باسماء اصحابهــا من اهل الفن . « الاسطى حميدة » مثلا . عوادة . « الاســـطى زوبة » . عالمة . « نعيمة المصرية » ارتيست .

داخل هذه الدكاكين توجد فئة من المتعهدين تسمى « المطيباتية » ان « المطيباتى » يتفق مع الزبائن ويقتسم الاجـر . وفى ليلة الفرح يرتدى الملابس المزركشة ويضع خاتما فى اصبعه . وطوال غنـــاء « العالمة » فان المطيباتى مسئول عن استمرار آهات المعجبين من الجمهور فى كل مكان من السرادق .

اذا وصلت الى شارع عماد الدين فسوف تجد كازينـــو دى بارى مسرح البرنتانيا . مسرح الاجبسيانا . الرينسانس . الابى دى روز الكوزمو . ثم .. مسرح رمسيس .

هنا تجد نوعا آخر من اهل الفن والطرب والموسيقى .

ان فى القاهرة موسيقى للفقراء .. وموسيقى للاغنياء .

فى القاهرة غناء للرجال .. وغناء للنساء .

فصاحب الفرح .. عندما يكون ثريا .. فانه يدعو نوعين من المطربين .. مطرب له وللوجهاء . واخر للجمهور العادى .

﴿ ان مطرب الاغنياء يرتدى بدلة . وهو صييت معروف باسمه الشيخ حامد مرسى .. اسماعيل سكر .. عبد اللطيف البنا .. الخ

ومطرب الفقراء يرتدى الجلباب . انه صييت معروف بصفته . من هؤلاء مثلا : فرقة الخضرى ، والقهوجى ، وحسين الكوجى ، وشحات الحلواني .. الخ .

● مطرب الاغنياء يحيى الليلة الرئيسية . ليلة الزفاف .

ومطرب الفقراء يحيى الليالى السابقة على الزفاف .

● وعندما يغنى مطرب الاغنياء يستاجر الثرى ماكينة كهرباء .



ام كلثوم فى رأس البر ايضــا ..
جلسه على البلاج مع كتــاب عن الشعر العربى القديم ..

فالمدعوون كلهم وجهاء. اما عندما يغنى مطربالفقراء فان صاحب الفرح يستاجر كلوبات غاز .

● واذا اجتمع المطربان فى ليلة واحدة فان مطرب الاغنياء يغنى فى الحفل . بينما الآخر يغنى فى الاستراحة !

● مطرب الاغنياء منفرغ للغناء . ومطرب الفقراء غير متفرغ . لا يستطيع .. ولذلك كان من الشائع أن يعمل بأكثر من حرفة .. من بينها الغناء او التلحين . فنجد فى شوارع القاهرة لافتة كتب عليها « بائع يانصيب وسجاير.. ومغنى » . لافتة اخرى « ملحن اناشيد ومقرىء مدائح نبوية ومشخص » . لافتة ثالثة « حانوتى ومقرىء ومشخصاتى » . رابعة « دار الجيسلاتى والتشخيص والتلحين » ! .

وعندما بدات ام كلثوم تغنى فى القاهرة فلقد كانت ما تزال تنتمى الى الدائرة الثانية : صالح عبدالحى يغنى فى ليلة الفرح ، وهى تغنى فى الليالى السابقة على الفرح . هى نفسها تأتى الى الفرح راكبة ، ثم تعود بعد الفرح سيرا على الاقدام . هى نفسها فقيرة ، تغنى المدائح النبوية . ترتدى العقال على راسها وبالطو أزرق على جسمها . ملابس متواضعة . ومازال عليها ان تحارب لكى تدخل الدائرة الاخرى المغلقة : دائرة المطربين المشهورين او نصف المشهورين . ان عليها أن تفعل ذلك مع الانخفاض الشديد فى الاحترام الذى يعطيه المجتمع لاهل الطرب .

ان كلوتبك مثلا قدم صورة حية لذلك عندما سبق انسجل فى كتابه « وصف مصر » يقول : « .. والمغنون المصريون الذين صناعتهم الغناء يسمون بالآلاتية مفرد آلاتى . وتتألف منهم فى مصر طبقة محتقرة فاسدة الاخلاق . اذا جىء بهم الى منازل الخاصة تقاضوا اجرا لا يتجاوز ما يعادل ثلاثة فرنكات الى اربعة فى الليلة الواحدة . والمدعوون لسماعهم يغدقون عليهم عادة من محض كرمهم شيئا من المال يضاف الى تلك الاجرة الزهيدة . وتقدم اليهم اثناءالغناء المشروبات الخمرية كالعرقى وغيره. وهم يفرطون فى شربها . ويحدث احيانا وقد لعبت الخمر بعقولهم ان يفقدوا وشدهم ويسقطوا على الارض. وفى مصر مغنيات يسمين بالعوالم ، وهى كلمة اطلقها الاوربيون على جميع الراقصات من غير تمييز ولا استثناء » .

ان كلوت بك يصف الغناء والموسيقى فى مصر خلال القرن التاسع

عشر . ومع ذلك فحتى هذه السنة ـ ١٩٢٦ ـ كانت النظرة الى الفن عموما لم تتغير بعد كثيرا .

فعندما بدا توفيق الحكيم يكتب للمسرح فى القاهرة خلال العشرينات وصفه أحد اصدقائه قائلا انه « .. منخرط فى زمرة أهل الفن والعياذ بالله » ! . من مذكرات توفيق الحكيم .

وعندما عبر المرحوم زكريا احمد لابيه عن رغبته فى العمل بالغناء والتلحين قال له والده الشيخ أحمد صقر مرزبان « بقى يا ابنى تبقى من عيلة مرزبان .. وتطلع من بتوع ياليل ياعين ؟! » .. مذكرات زكريا احمد .

وهذه النظرة لم تقتصر على الشخص العادى .. بل هى ممتدة الى الحكومة ايضا . ان تطوير ورعاية الفن ـ هذا راى الحكومة ـ هو من اختصاص وزارة الاشغال ! انه كرصف الطرق وبناء الجسور والترع !

وعندما نشرت الصحف فى سنة ١٩٢٦ خبر ايفاد أول بعثة فنية مصرية قالت « اوفدت الحكومة المصرية فى العام الماضى أول بعثة لدراسة التمثيل مكونة من فرد واحد هو زكى أفندى طليمات الموظف بوزارة الاشغال » .

ووزارة الاشغال هى التى أشرفت على اقامة اول مسابقة فنية فى سنة ١٩٢٦ . وكانت الجوائز الاولى فيها من نصيب : زكى رستم فى التمثيل التراجيدى . بشارة افندى يواكيم فى التمثيل الكوميدى .. السيدة فيكتوريا موسى فى التمثيل الكوميدى للسيدات . و .. السيدة منيرة المهدية فى الغناء المسرحى .

ان منيرة المهدية هى سيدة الغناء فى مصر منذ سنوات طويلة مضت .. الى جانبها توجد السيدة نعيمة المصرية . السيدة توحيدة . السيدة فتحية احمد . الآنسة أم كلثوم !

والى جانب هؤلاء توجد من الممثلات : فيكتوريا كوهين وشقيقتها هزيبت كوهين ، مارى منصور ، دوللى انطون ، رتيبة رشدى وشقيقتها فاطمة رشدى ، دولت ابيض ، امينة رزق ، وابريز ستاتى .

ان انتشار الاسماء الاجنبية فى الوسط الفنى سببه ان الفتاة فى مصر لم تكن قد دخلت بعد باب التمثيل على نطاق واسع . بل ان فرقة دار التمثيل العربى ، عندما قدمت للجمهور رواية « بنت

السبندر » سنة ١٩٢٦ ـ فانها اسندت دور المرأة فيها الى الممثل حسن فائق . ونشرت له مجلة « المسرح » صـــورة (براقة) بضفائر الشعر الطويلة والروج الفاقع .

والصحف نفسها كانت تنشر بين وقت وآخر صور الممثلات اللامعـات .. فى ازياء الرجال ! مرة تنشر صورا لزينب صدقى وفاطمة رشدى بالطربوش والبدلة : ومرة تنشر صورا لفاطمة اليوسف وبديعة مصابنى وعزيزة امير وامينة محمد وفتحية احمد فى ملابس (الافندية والخواجات) !.

و .. نحن فى سنة ١٩٢٦

ان المظهر الرئيسى للاهتمام بالفن هو الصحف . ان الصحف والمجلات خصصت عددا من اكبر كتابها لنقد الحركة المسرحيـة والغنائية والموسيقية . محمد التابعى يكتب عن المسرح فى (الاهرام) .. التوقيـع « حنـدس » . ابراهيم المصرى يكتب فى مجـلة « التمثيل » . زكى طليمات فى « المقطم » . عبد المجيد حلمى فى « المسرح » . سعيد عبده فى روزاليوسف .. الخ .

ولكن النقد لم يكن أمرا سهلا . أن أحد النقاد كتب كلمة خفيفة عن تمثيل السيدة مارى منصور .. ولكن « ..السيدة لم تر رأيه»، فأرسلت وراءه نفرا من أصحابها ليلقوا عليه درسا فى فن الكتابة.. وليبرهنوا له على أن العصا اقوى حجة من « القلم » !

صحفى آخر .. « هددته ممثلة فى مسرح كبير بالشبشب فى الطريق العام ، والقت عليه محاضرة طويلة عن اصله واصل آبائه واجداده » !

ناقد ثالث كتب مقالا عن رواية « قمر الزمان » انتقد فيه بشدة السيدة منيرة المهدية . ثم « .. اضطر بعدها الى أن يحمل شومة فى يده اينما سار ليدافع بها عن نفسه ـ رايه ـ ضـد فتوات عماد الدين الذين ارسلتهم وراءه السيدة ليتفاهموا معه » .

ان السيدة منيرة تمثل وتغنى ..

والاتجاه فى الغناء كان متذبذبا . فبعد نهضـة قصيرة فى المسرح الغنائى مثلها سيد درويش .. بدأ الغنـاء يبتعد عن التواشيح ولكنه يقترب من الخـلاعة . ان احد الشعراء قدم مرة قصـيدة شعرية طويلة الى كامل الخلعى لكى يلحنها فصاح فيه الخلعى قائلا :

كيف يمكن تلحين ذلك ؟ هذا شريط ترمواى وليست قصـيدة !

اما الاغانى المنتشرة فكانت تختلف .

ام كلثوم ٠٠ مع العود ٠ صورة تحتفظ بها ام كلثوم لنفسها ٠٠

مثلا .. الاغنية المشهورة التى الفها يونس القاضى وغناها عبد اللطيف البنا تقول : ارخى الستارة اللى فريحنا .. أحسن جيرانك تجرحنا !

هذه الاغنية تستطيع سماعها فى مقاهى القاهرة مثل : اللاوندية واسماء الكمسارية . أو ــ بالاسكندرية ــ فى مقهى شـيبان أو مقهى الياس .

اغنية اخرى تقول : مين فيكو بابا مين فيكو ماما .. مش عارفة نينة من غير علامة !

اغنية ثالثة فى مقهى الالدرادو تقـول : اوعى تكلمنى بابا جاى ورايا ..

تغنيها عزيزة المصرية .

اغنية رابعة بطلبها « السميعة » تقول :

ماتخافش عليا انا واحـدة سجوريا

فى العشق يا انت واخـدة البكالوريا

واذا سرت خطوات أخرى فى شارع عماد الدين فسوف تسمع اغنية الموسم :

ايه اللى جرى .. فى المندرة
شىء ما افهموش
انا كنت لسه صغيرة !

وكان الجمهور يعبر عن اعجابه بالطرابيش . ان قذف الطربوش هو اقوى وسائل التعبير عن الاعجاب عند جمهور ١٩٢٦ .

والطرابيش تملأ جميع مسارح القاهرة .

الطرابيش تملأ مسرح « الرينسانس » بشـارع فؤاد (اقيمت مكانه فيما بعد سينما ريفولى) .

وتملأ « تياترو ماجستيك » بشـارع عماد الدين ، حيث تعرض رواية « الطمبورة » .

وتملأ ايضا مسرح رمسيس ، الذى يعرض رواية «حانة مكسيم» وتياترو حديقة الازبكية حيث تعمل فرقة عكاشة .



ام كلثوم .. مع باقه زهر وقطه فى شرفه منزلها .

ودار الطرب الجديدة ـ صالة بديعة مصابنى ـ بشـارع عماد الدين . اعلانات الصالة تقول ان السيدة بديعـة قد « خصصت مقاعد للسيدات بعيدا عن الرجال .. حفظا لكرامتهن » !

وتياترو برنتانيا ، حيث يقدم جوق السيدة منيرة المهدية الرواية الجديدة « البريكول » وتلحين كامل افندى الخلعى . خارج التياترو تقول الاعلانات « تقوم بالدور المهم فى الرواية السيدة منيرة المهدية سلطانة الطرب وكروانة مصر الوحيدة وبلبـل وادي النيل » ! اعلانات اخرى تقول « الليلة تغنى السيدة منيرة المهدية . دكتوراه ممتازة فى الغناء والطرب بين العالم الشرقى جميعه » !

فى داخل المسرح تسمع منيرة المهدية وهى تغنى . عنـدما تغنى يقف خلفها « المذهبجية » او « السنيدة » ، الذين لا ينطقـون ولا يتحركون الا بقدر .. وفى الوقت الذى تريده « الصييتة » !

ومنيرة المهدية بدات العمل فى صالة الالدرادو ، حيث كان الذهب يتدفق من العمدوالاعيان. وقد اصبحت بعد قليل تلقب بـ« سلطانة الطـــرب » ، حتى لقد كان يجتمع فى بيتهـا مجلس الوزراء .. واذا غضب منها احد رؤساء الوزارات .. كانت تصـالحه باغنية « تعالى يا شاطر نروح القنـــاطر » . ويصطلح رئيس الوزراء .. ويذهب الى القناطر !

ان هذا المستوى من الاغانى كان قد اضطر سيد درويش ـ قبل سنوات من وفاته ـ الى ان يجاريه عندما لحن وغنى : الاســـتيك فوق صدرك يضوى . و : ياأنا يا انت يا واد يا ماطاط !

وهذا المستوى من الخلاعة هو الذى اضطر سيد درويش ايضا ان يلحن منذ سنوات روايات كشكش بك التى كان نجيب الريحانى يقوم ببطولتها .

هذا بالضبط يقول توفيق الحكيم فى كتابه « سجن العمر » : كان الاقبال على كشكش بك يعادل الاقبال على الكباريهات . ولم يكن سر رواجه فى الحقيقة الا تلك الراقصات الجميــلات الشقراوات الاجنبيات الوافدات علينا من الخـــارج عقب الحرب الاولى مثل « دينالسكا » ومثيلاتها ممن قذف بهن الجوع من بلاد منهـــزمة كالنمسا والمانيا .. فجئن الى مصر المفتـوحة يومئذ لكل من هب ودب . فملأن المسارح والحانات وقاعات الليل . وكان الشـــباب من الوارثين يقبلون على تلك المحال جميعا لمصاحبة الفتيات اخر الليل . وكان الواحد منهم يحضر الرواية الواحـــدة للريحانى كل ليلة ، لاحبا فى الرواية نفسـها ـ التى سبق أن شـــهدها مرات ـ ولكن من أجل سيقان الفتيات .

حسنا ..

هذه هى السنة التى قررت فيها ام كلثوم أن تستقر بالقاهرة . وهذا هو نوع من الجمهور الذى تشهده مسارح ومقاهى القـــاهرة سنة ١٩٢٦ .

هل تختار ام كلثوم هذا النوع جمهورا لهـــا ؟ هل تغنى له . ما تنافش عليا انا واحدة سجوريا ؟

هل تفعل ام كلثوم كذلك ؟

نعود الى مذكرات ام كلثوم ...



« ليس مهما ان اكون مطربه من الدرجة الثالثة ، المهم الا ابقى فى الدرجة الثالثة » ! ..

أم كلثوم

من مذكرات أم كلثوم

صفعني أبي ليرضى الجمهور !

كانت القاهرة عندما بدانا نستقر فيها سنة ١٩٢٦ كالمريخ فى كل شىء فيها نكتشفه لاول مرة . كل شىء فيها مختلف عما رأيناه من قبل . البيوت مختلفة . الشوارع مختلفة . السهرات مختلفة . الناس مختلفون . والجمهور مختلف .

فى الريف كان صاحب الفرح ياتى الينا مباشرة – الى ابى – للاتفاق على الغناء .

ولكن فى القاهرة لا بد من وجود متعهد الحفلات .

ان المتعهد هو الذى يتفق مع الجمهور من ناحية ، ثم هو الذى يتفق مع المطرب او المطربة من ناحية اخرى .. ويعد له مكان الغناء، ويتولى الدعاية له بين الجمهور .

وفى البداية عانينا كثيرا من التعامل مع متعهدى الحفلات . كان ابى طيب القلب خالص النية فى تعامله . وكان العمل فى القاهرة يتطلب صفات مختلفة . ويظهر ان منظر ابى كرجل ريفى .. ومنظرى كفتاة صغيرة .. بالعقال والبالطو .. يظهر ان هذا كان يغرى متعهدى الحفلات أحيانا بالضحك علينا .

فى البداية مثلا كان صديق احمد متعهد الحفلات يحضر فى الصباح للاتفاق مع أبى على أجر الغناء . الاتفاق يقضى بأن يدفع لى سبعة جنيهات .

وعندما نذهب الى صالة الغناء فى المساء .. فان صديق احمد كان يدخلنا الى المسرح لنجلس خلف الستارة نستعد . ويبدا صديق احمد فى الشكوى لابى قائلا : يا خسارة ! مفيش جمهور ! شوف الصالة فاضية ازاى ؟!

وعندما يتطلع ابى الى الصالة من خلف الستار .. يجد ان الصالة خالية من الجمهور فعلا . لان صديق احمد تعمد ان يحضرنا قبل موعد الجمهور بساعة او بساعتين !



من افلام ام كلثوم

والحل ؟!

كان الحل ينتهى دائما بنجاح المتعهد فى تخفيض الاجر المتفق عليه من قبل فى الصباح . فبدلا من سبعة جنيهات يصبح الاجر خمسة او اربعة جنيهات !

ويوافق ابى بحسن نية ، بينما المتعهـد يتمتم بصوت مسموع ! ربنا يسهل بقى وماالخسرشى اكثر من كده !!

وعندما نبدا فى الغناء بعد ساعة او ساعتين .. عندما يفتح الستار .. نفاجأ بان الصالة قد اصبحت مزدحمة بالجمهور الذى لا يجد مكانا !

ونبحث عن المتعهد فنجده .. فص ملح وداب !!

⊚❖⊚

على ان هذه المشكلة بدات تختفى عنـدما بدا ابى شيئا فشيئا يكتسب الخبرة فى التعامل مع متعهدى الحفلات بحيث لا ننخدع منهم بهذه السهوله .

بدات المشاكل مع المتعهدين تختفى ، لتحل محلها مشاكل اخرى .. مع الجمهور نفسه !

كان الجمهور فى البداية ، ياتى لكى يسمع غناء . انه ياتى اولا لكى يسلى نفسه . يسهر وينبسط ويفرفش .. ويسكر !

واذا سمع مطربا.. فالغناء لابد ان يتمشى معمقتضياتالسهرة .. يعنى لزوم الفرفشة !

لهذا السبب فان موجة الطقاطيق الخفيفة ــ الخليعة غالبا ــ هى التى كانت رائجة فى تلك الايام !

لم يكن هذا لوننـــا . كنت ما ازال اغنى المدائح النبوية .. والقصائد .. واصمم على التمسك بهما .

ولكن هذا التصميم خلق لى مشاكل كثيرة فى القاهرة .

اذكر اننى كنت فى احدى الليـالى ــ سنة ١٩٢٦ ــ اغنى فى كازينو البوسفور .

ان كازينو البوسفور كان يقع فى ميدان المحطة ــ ميـدان باب

الحديد حاليا ـ بالقاهرة » وكان رسم الدخول للسهر فى الكازينو بخمسة قروش ..

فى تلك الليلة بدات اغنى ـ كالعادة ـ فى الساعة العاشرة مساء .

ولم تكن هناك آلات تصاحبنى فى الغناء ، كان افراد التخت هم اربعة ، منهم ابى واخى خالد،وكنت ما أزال ارتدى العقال والبالطو الازرق .. واغنى المدائح النبوية والقصائد .

وبدات فى تلك الليلة اغنى : سبحان من ارسله رحمة لكل من يسمع او يبصر ..

وبعد قليل بدا افراد الجمهور يطلبون منى ان اتوقف عن الغناء وأن أغنى لهم الاغانى السائدة فى تلك الفترة . اغانى خليعة ..

ان الاغانى المنتشرة فى تلك الفترة كانت فى منتهى الخلاعة » الى درجة أن اغنية « بعد العشا .. يحلى الهزار والفرفشة » مثلا تعتبر اغنية غير خليعة بمقاييس تلك الايام ! وكان من المألوف ان يقوم اكثر من مطرب او مطربة بغناء نفس الاغنية ..

المهم .. طلب منى هؤلاء الافراد من الجمهور ان اغنى شيئاآخر بدلا من قصيدة ا سبحان من ارسله رحمة .

ورفضت ..

استمررت فى الغناء ا سبحان من .. ..

فى هذه اللحظة بدات تعلو اصوات نفس الافراد منالجمهور لكى يرغمنى على الا استمر ..

بعد قليل بداوا يصفرون لمقاطعة غنائى ..

ومرة اخرى استمررت فى الغناء ..

ولكن المسالة لم تقف عند هذا الحد . لقد وقف افراد منهم وهجموا على المسرح يريدون اغلاق الستار » فى هذه اللحظة فقط بدات افقد اعصابى ..

كانت المسالة هى أن القادم الى الكازينو فى هذا المساء .. يعلم مقدما من التى ستغنى ، فالاعلان المعلق فى الخارج يحمل اسمى .

وهو يعلم ايضا لون الغناء الذى سيسمعه .. فهو اللون الذى كنت اقدمه ..

ويعلم أن الاغانى الخليعة التى يريدها لها اماكن اخرى تغنى فيها فما معنى هذا الصفير ..؟!

المهم .. اننى لحظتها ثرت عندما هجموا على المسرح يحاولون اغلاق الستار ..

فى الواقع اننى شتمت هؤلاء الإفراد من الجمهور ..

ولم انتبه الا وابى يصفعنى بيده ! ..

كانت اول مرة اتلقى فيها مثل هذه الصفعة من ابى ، اول مرة يصفعنى فيها امام الجمهور ..

وبكيت ! ..

بكيت لاننى على حق .. وابى يعلم ذلك .

ولكن ابى كان على حق ايضا .. لقد كان اوسع منى ادراكا .

ان ابى ضربنى أمام هؤلاء الافراد الثائرين من الجمهور .. لكى يرضيهم ! لكى يهدىء من ثورتهم ! لقد رأى الشر فى أعينهم وهم يهجمون على المسرح متجهين نحوى ..

وخشى ابى ان يحدث لى مكروه . خشى ان يؤذينى هؤلاء الافراد السكارى ، فتطوع بمعاقبتى عنهم . كما أنه اراد ان يلقننى درسا فى الادب ! فمهما كانت الظروف ، لا يجوز لى ان اشتم واحدا من الجمهور . لا يجوز لى أن اتفوه بلفظ نابى واحد .. حتى ولو كان معى الحق فى ذلك ..

و .. .. ..

انسحبت من المسرح فى تلك الليلة .. أجر دموعى ! ..

◎❖◎

والواقع ان هذا النوع من الجمهور لم يكن يقتصر وجوده على القاهرة . كان هذا النوع موجـودا فى كل مكان . معنى ذلك ان مقاومة تيار الاغانى الخليعة أمر سهل ، ولا حتى أمر ممكن دائما وربما كان جزءا كبيرا من المجهود الذى بذلته فى البداية .. موجها لمقاومة اغراء الهبوط الى المستوى السائد من الاغانى الخليعة ..

وفى البداية لم يكن يمر شهر ــ ولا حتى اسبوع ــ الا تواجهنى مشكلة بسبب عدم غنائى لهذا النوع من الاغانى .



من افلام ام كلثوم

بل ان تصميمى هذا كاد يكلفنى حياتى فى احدى المرات !

كنت اغنى فى احدى القرى ..

وبالتحديد كانت قرية تقع بجوار بلدة ميت العامل فى مركز اجا بمحافظة الدقهلية .

مكان الغناء هو دوار العمدة . دوار واسع . الجمهور يملأ الدوار . من هذا الجمهور وجوه اعرفها من قبل . فلقد كانت المرات العديدة التى غنيت فيها من قبل قد بدات تشجع هذا اللون من الغناء الذى كنت اقدمه ، ولكن الى جانب جمهورنا هذا كان يوجد النوع الآخر من الجمهور . النوع المألوف .. الذى جاء ليشرب الخمر ويستمع الى أغانى « بعد العشا .. يحلى الهزار والفرفشة » ! كان هذا الجمهور يمثل اقلية بسيطة جدا فى الريف .. ولكنه كان موجودا على أى حال ..

فى تلك الليلة بدات اغنى قصيدة « سبحان من ارسله رحمة .. لكل من يسمع أو يبصر » ..

دقيقة واخرى واخرى ..

ثم وقف واحد من الجمهور يصيح : ايه الغم ده .. عايزين نفرفش ! ..

واستمررت فى الغناء ! ..

ولكن نفس الشخص عاد ليقف من جديد : عايزين نفرفش .. عايزين شوية مياعة .. شوية مواويل .. غنى لنا ياليل ياعين !

ولم التفت اليه . مازلت مستمرة فى الغناء ..

ولكنه استمر فى مقاطعته لى ..

وعندما حاول عدد آخر من الجمهور ان يسكتوه تكهرب الموقف !

لقد وقف الرجل المخمور وسط الدوار واخرج من جيبه مسدسا ولوح به فى الهواء مهددا ! ..

قال الرجل مهددا الجمهور بالسدس ! اللى مش عاجبه يطلع بره ! ..

وفى لحظات كان الصمت يخيم على المكان كله . صمت له رنين !

ونظرت الى الدوار الواسع فوجدته قد اصبح خاويا .. لاأحد على الكراسى ! الجمهور الذى كان يتزاحم منذ لحظة .. ذاب !

ويبدو ان هذا الرجل كان صاحب سطوة فى القرية دون ان ندرى .. لقد اكتشفنا فيما بعد أنه ابن العمدة! واحد من اصحاب النفوذ فى اى قرية ! ..

المهم ـ صمم ابن العمدة بمسدسه على ان اغنى له ما يريد ..

وصممت على الا اغنى سوى ما اريد ..

وتوزعت نظرات ابى بين وجه ابن العمدة .. وبين مسدسه .. وبينى ! ..

قال له ابى : معلهش يا ابنى .. هدى نفسك ! ..

ورد ابن العمدة : لازم تغنى ياليل ياعين . لازم تعمل لنا شوية انبساط وفرفشة ! ..

فقال له ابى : فرفشة ايه ياابنى بس وانت شايلنا المسدس !

ـ هو كده ! ..

قال ابى : حاضر يا ابنى .. حتغنى .. حتغنى كل اللى انت عايزه ، بس هدى نفسك .. غنى له يابنتى .. امرنا لله !

وصممت على الا اغنى ! ..

لم يكن تصميمى عن شجاعة .. فالمسدس على بعد متر منى ..

ولكن تصميمى كان عن عناد .. وعن ايمان ..

وبدا المسدس يتململ فى يد الرجل وهو يقول بكلمات تلاعبت بها الخمر : يعنى ما بتغنيش ؟!

ورد ابى بسرعة : حتغنى يا ابنى .. اصبر عليها بس .. صبرك بالله ! ..

و .. ..

انقذتنا عناية الله ..

ففى تلك اللحظة دخل الى الدوار واحد نعرفه . صاحب عزبة مجاورة للقرية .. جاء فى هذه الليلة ليسمعنى بالصدفة .. عندما علم فى طريق عودته أننى اغنى هذه الليلة فى تلك القرية .

ولم يحس ابن العمدة المخمور بالرجل .. الا بعد ان خطف منه المسدس واوسعه ضربا ! ..

⊙⁂⊙

واعود الى القاهرة ..

ان الجمهور المخمور كان اقليـة فى الريف . ولكنه كان اغلبية يحسب لها الف حساب فى القاهرة . والمسالة كالحلقة المفرغة.. لا تدرى من اين بدات ، هل العيب فى مسـتوى الاغانى .. ام فى انتشار نوع معين من الجمهور .

وعلى اى حال فلقد كان الدرس الذى خرجت به مبكرا هو الا اياس ، هو ان اصمم على نشر اللون الذى كنت اغنيـه ، ولم يكن يدفعنى هذا الى التعصب لما اغنيه .. وانما تطوير ما اغنيه بحيث يكون مقبولا ، وبشرط الا اضـحى بالمسـتوى الذى اؤمن به فى الغناء ..

شيئا فشيئا بدا حظى يتحول ..

فى الواقع ان رصيدى السابق من الشقاء والتعب فى الريف بدا يصبح ميزة كبرى انفرد بها ، فحتى تلك الفترة لم اكن قد اصبحت معروفة بشكل حاسم فى مدينة القـاهرة . كان رصيدى كله فى الريف . لقد غنيت فى مئات من القرى والكفور والنجـوع والمدن الصغيرة ، بحيث اصبح الجمهور الذى يعرفنى جمهورا آخر ، غير الذى تعرفه ليالى القاهرة ..

⊙⁂⊙

ان هذه الظاهرة سببت الحيرة لشركات تسجيل الاسطوانات.

ان اول اسطوانة سجلتها كانت اغنية « مالى فتنت بلحظك الفتاك » . اغنية لحنها لى احمد صبرى النجريدى .. وسجلتها شركة اسطوانات « صوت سيده » بالقـاهرة . ان الشركة سجلت لى هذه الاسـطوانة وهى تقدر مقدما انها صفقة خاسرة . لهذا لم اتقـاض من الشركة اكثر من ثمانيـة جنيهـات .. هى كل مستحقاتى عن حقوق تسجيل الاسطوانة .



.. انور وجدى .. الذى اشترك مع ام كلثوم فى بطولة فيلم « فاطمة » .

ثم فوجئت الشركة بانها حققت فى الاسطوانة ارباحا ضخمة .. مع أن ثمن الاسطوانة كان عشرة قروش !

كيف حدث ذلك ؟ اننى لم اكن معروفة بعد لجمهور القاهرة .. فمن هو الجمهور الذى اشترى تلك الاسطوانة ؟

كانت المسالة ببساطة هى اننى اتميز عن مطربات القاهرة بالجمهور الذى يعرفنى فى الريف . وعندما يأتى واحد من هذا الجمهور الى القاهرة فمن الطبيعى أنه سيشترى اسطوانة للمطربة التى سمعها ورآها .. وانه لم تكن هناك اذاعة بعد ، ولم تكن مطربات القاهرة المشهورات فى ذلك الوقت يذهبن الى الريف . لم يكن الاعجاب بصوتى اذن هو سبب رواج الاسطوانة ، ولكنه كان مجرد حب الاستطلاع ..

◎❖◎

وشيئا فشيئا بدأ رصيدى يزداد من جمهور القاهرة .. وبدأت شركات الاسطوانات تضاعف أجرى عن كل اسطوانة .. ولكن المسالة لم تكن ابدا بمثل السهولة التى اكتب بها الان . كانت هناك منافسة ، وهى منافسة حادة غالبا .. ولم اكن اعرف بعد احدا من كتاب صحف القاهرة . ومع ذلك فان مواقف الصحف والمجلات فى هذه المنافسة كان يختلف ..

اذكر انه فى مايو سنة ١٩٢٦ نشرت احدى المجلات تعليقا يقول : « للسيدة منيرة المهدية انصار ، وللآنسة ام كلثوم انصار .. وكل من الطرفين يدعى ان صاحبته هى ذات الصوت الاجمل . ولكن ، من هو الحكم الذى يحكم بالاولوية لهذه أو تلك ؟ هو الجمهور ولاشك .. والآن اسمع .. تدفع شركة بيضافون للسيدة منيرة المهدية اربعين جنيها مقابل كل اسطوانة تملأها السيدة .. وتدفع شركة اسطوانات «صوت سيده» للآنسة ام كلثوم خمسين جنيها مقابل كل اسطوانة تملأها الآنسة ! .. ومعنى هذا ان اقبال الجمهور على شراء اسطوانات ام كلثوم اشد من اقباله على شراء اسطوانات السيدة منيرة .. ولهذا نجد اسطوانات الآنسة اغلى ثمنا من اسطوانات السيدة » ..

انتهت كلمات المجلة .. انها بلا شك تعطى صورة عن تلك الفترة من سنة ١٩٢٦ .

ولكن ..

لم يمض أسبوع واحد آخر الا وحــدث تصرف غريب .. من نفس المجلة !

⊙❖⊙

ان المنافسة الغنائيـــة فى سنة ١٩٢٦ كانت قد تبــلورت بحيث تركزت فى النهاية بين منيرة المهدية وفتحية احمد .. وبينى .

وقد ارادت المجلة المذكورة ــ هكذا قالت ــ أن تصل الى راى قاطع فى هذه المنافسة . قالت المجلة : «ثارت فى الايام الاخيرة ضجة حول الغناء والمطربات .. ايهن اجمــل صوتا وأيهن اعمق فنـــا واعذب نغمة واسمى روحا وأدق تصويرا .. الخ. فكتب كاتب فى (البلاغ) فى هذا الموضوع ، وقام ثان فى (الاهرام) وثالث فى (السياسة) .. وكان مدار كل هذه المقالات هو السيدة فتحية احمد والمقارنة بينها وبين الآنسة أم كلثوم والخروج من هذه المقارنة بتفضيل الاولى على الثانية .. وتعرض البعض للسيدة منيرة المهدية ولم يحترم درجة الامتياز التى نالتها فى مباراة الغناء المسرحى (أجرتها وزارة الاشغال) فقام ووضـــعها هى ايضـــا على المشرحة . أما سوى هؤلاء مثـــل السيدات نعيمة المصرية وتوحيدة وفاطمة سرى وفاطمة قدرى فلم يعرض لهن احـــد بكلمة . ولهذا رأينـــا ان نقوم باستفتاء حضرات القراء ، وأن نقصر الاستفتاء على هؤلاء المطربات الثلاث اللاتى يدور حولهن الاخذ والرد ، وهن السيدات ام كلثوم وفتحية احمد ومنيرة المهـــدية ..

« وموضوع الاستفتاء هو :

« اولا : من هى الاجمل صوتا بين هؤلاء المطربات الثلاث

« ثانيـــا : من هى التى يؤثر فيك صوتها أكثر من ســـواها ؟ و (ويؤثر فيك) معناها هنا (يشجيك) ..

« ثالثا : من هى الاكثر الماما بفن الغناء ..

« رابعا : اذا فرضنا ان هؤلاء المطربات الثلاث كن يغنين فى ليـــلة واحـــدة فى اماكن مختلفة .. فأيهن تفضل ان تذهب لسماعها » .

هـــذا مانشرته المجلة ..

وفى الاسبوع التالى مباشرة قامت بنشر النتيجة ..

كانت النتيجة ـ كما نشرتها المجلة ـ هي ان ترتيب المطربات هو :

اولا : فتحية احمد ..

ثانيا : منيرة المهدية ..

ثالثا : ام كلثوم !

ومهما كانت الدوافع وقتها وراء اخراج النتيجة بهذا الشكل ، الا انني في الواقع صدمت من سيطرة الصداقات الشخصية على الصحفيين المتصلين بالوسط الفني .

لم اكن اختلط باحد الكتاب او الصحفيين . لم اكن أهتم الا بتطوير صوتي وغنائي . مازال هذا رايي الى اليوم . برغم الصعوبات التي خلقها هذا الاسلوب امامي ..

ولكن المهم انني اعتبرت ان النتيجة التي نشرتها المجلة صحيحة .. فلتعتبرني المجلة مطربة من الدرجة الثالثة .. لا يهم . ولكن المهم هو الا ابقى في الدرجة الثالثة !

ان مثل هذه الاشياء كان من الممكن ان تكون بالنسبة لي حافزا على اليأس ، بحيث اعود الى الريف من جديد .

وكان من الممكن ان تكون حافزا لي على بذل مزيد من الجهود ، بحيث ابقى واستمر واعمل ..

وهــذا ماحدث ..

اصبحت اعتبر ان المشاكل ليست صعوبات .. وانما هي تحديات .. المشاكل ليست اعذارا عن الكسل .. وانما هي مبررات للعمل .. وفعــلا .

لم يمض وقت طويل قبل ان اقرا اول مقال امين عني كتبه صاحبه قبل ان يراني ..

لقــد نشر المقال وقتها في جــريدة (السياسة) . . وكان كاتبه الشيخ مصطفى عبد الرازق .

هذا هو اول مقال صحفي اعتز به في حياتي الفنية . ومازلت حتى اليوم اشعر نحوه بوفاء بالغ .

ولم تمض فترة اخرى حتى كنت قد بدأت فعلا التقى بحظى ..

لقد بدا حظى يتحول مع اغنية « ان كنت اسامح وانسى الاسية »

هذه الاغنية اشترى الجمهور منها نصف مليون اسطوانة !

ولكن سعادتى بدات تتضاعف بعد ذلك بعدة سنوات عندما كنت بالاسكندرية جالسة فى كازينو بالشاطبى .. أمام الكازينو كباريه ..

فى هذا المساء لم اصدق اذنى ! لقد سمعت مطربة تغنى فى الكباريه قصيدة ابا الزهراء !

ليلتها .. لم أنم حتى الصباح !

لم انم من فرط سعادتى . لقد أصبح الجمهور مقتنعا بسماع « ابا الزهراء قد جاوزت قدرى » .. حتى فى كباريه ! تطور لا يمكن تقديره فى رايى بأى مبلغ من المال ! ..

□ □ □



« اضطررت الى الغناء اربع ساعات .. دون أن يسمعنى احد غير مائتى كرسى .. كراسى لا يجلس عليها فرد واحد .. كراسى سمعتنى فى صمت بليغ! »

(أم كلثوم)

من مذكرات أم كلثوم

أمى .. وأبى .. والشيخ أبو العلاء!

كانت امى سيدة بسيطة جدا !

لم تكن تعرف القراءة او الكتابة .. لم تكن متعلمة . . ولكنها كانت مثالا للسيدة التى تعرف كيف تقوم بواجبها نحو زوجها ونحو أولادها ..

لهذا لم يتزوج ابى غيرها !

ولم تكن هذه عادة مالوفة فى الريف ، ولا حتى فى اسرتى نفسها .. كان لى ثلاثة أعمام تزوج كل منهم مرتين أو ثلاثا ..

ولكن ابى كان يقدر فى امى حكمتها وبساطتها وتفانيها فى تربيتنا .

لقد تعلمت منها التواضع .

وتعلمت منها الصدق .

وتعلمت منها الايمان بالله ..

كنا نستيقظ فى الفجر على صوتها ــ مع أبى ــ هى تؤدى الصلاة .

ولم نرها فى مرة تختلف مع ابى بصوت مسموع .

ولم نسمعها تناديه بغير « ياشيخ ابراهيم »

وكانت امى تساعد ابى بكل ماتستطيع . بل ان أبى عجز مرة عن ان يجد نقودا تكفى لشراء « كيلة ذرة » .. مشكلة .. ولكن امى نهضت لتجمع كل مصاغها وتعطيه لابى حتى يشترى لنا الذرة فنجد ما نأكله .. و ــ يادوب .. كان ثمن المصاغ يكفى لشراء كيلة الذرة !

لم تكن امى تهتم بالنقود .. حتى عندما بدانا نستقر فى القاهرة وندخر جزءا من دخلى .. كانت تقول : ان النقود تفسد !

وفى كل مرة كنت اسافر فيها مع ابى للغناء كانت تكرر له نفس

المحاضرة « .. والنبى ياشيخ ابراهيم تاخــد بالك من النت .. اوعى حد يقول لك هاتها نسلم عليها فى البيت ونوافق . أوعى تسيبها لوحدها . خلى عينك عليها . أولاد الحرام كتير » !

وعنــدما بدأنا نستقر فى القــاهرة لم تكن تنام الا بعد عودتى من الغناء فى الفجر ..

⊙✤⊙

وأمى كانت بسيطة فى فهمها لوسائل التربية كنا صغارا اشقياء ــ انا واختى واخى ــ بحيث لا يمر يوم دون أن نلعب بأدوات المنزل فنكسر بعضها أحيانا ..

ولكن امى كانت تقول لنا : « .. اللى يكسر حاجة وييجى يقول لى ياخد السبعة » !

ان « السبعة » هى سبع كراملات !

وكانت تقول لنا : « اللى يسرق حاجة .. ربنا يسخط وشه بخليه وش حمار » !

⊙✤⊙

.. ولكنى فى مــرة حاولت ان اسرق أمى !

لم تكن هى فى المنزل . منزلنا المتواضع بقرية « طماى الزهايرة » فى مركز السنبلاوين . ثم مــر فى القرية رجل يبيع غزل البنات .

وتسابق اطفال القرية الى الرجل لشراء غزل البنات .

وزاغت عينى .. اريد غزل البنات !

ودخلت الى المنزل .. ومددت يدى الى جيب احــد اثواب أمى ، فوجدت فيه نصف فرنك .

اخذت نصف الفرنك ، وخرجت اجرى الى بائع غزل البنات .

.. ثم توقفت عن الجرى فجأة ..

تحسســت وجهى .. تذكرت ان الله ســيحول وجهى الى وجــه حمــار كما كانت امى تقول لنا !

وعدت الى المنزل ، ثم اعدت النصف فرنك الى مكانه .. وخرجت من جديد اتفرج على الاطفال وهم يشترون غزل البنات ..

ولكن منظر غزل البنات اغرانى من جديد بأعادة المحاولة .. فعدت الى المنزل .. لاجد امى قد عادت من الخارج ..

فى هذه اللحظة لم أتنبه الا وانا اعترف لها بكل مافعلت !

أستمعت أمى الى اعترافى بارتياح كبير وهى تقول : الحمد لله .

قالتها كما لو كانت قد انقذت وجهى فعلا من التحول الى وجه حمار .. !

ثم اعطتنى هى النصف فرنك لاشترى منه غزل البنات !

⊙❖⊙

وكانت امى تحب شهر رمضان جدا .. وطوال الشهر لم نكن نسمع سوى آيات القرآن والاحاديث النبوية ..

وعندما اصبح لنا منزلنا الخاص فى القاهرة كانت ترفض أن تقوم « الشغالات » بخدمتنا ونحن على مائدة الافطار .. كانت تصر على ان نجلس جميعا ـ جميع فى المنزل ـ لتناول الافطار معا ..

وكانت تربى أولاد أختى بنفس الطريقة .

لم تكن توافق على خروجهم لاستذكار دروسهم بعيدا عن البيت ، وطوال مذاكرتهم كانت تصر على أن تظل ساهرة لخدمتهم .

وكانت ترفض ان تغتاب أحدا ، أو تتكلم عن أحد بسوء .

فى الواقع انها كانت سيدة عظيمة .

فبفضلها هى تحولت طفولتنا من أيام شقية الى أيام سعيدة . من أيام فقيرة .. الى أيام غنية ..

ان طفولتى لم تختلف عن طفولة الكثيرين من ابناء بلدى . أن الطفولة قد تقترن فى اذهان الكثيرين باللعب ، بالحنان ، بالمرح ، بالعروسة الحلاوة ، بالجنيه العيدية .

ولكننى عندما اتذكر طفولتى تقفز الى ذهنى اشياء كثيرة : البرد المطر ، الفقر ، الطرحة السوداء ، الشاى التقيل ، الجبن القريش ، الثروة التى كانت قرشا ، العظام التى كانت لحما ، الركوبة التى كانت حمارا ، الحنان الذى كان ابى ، الرحمة التى كانت أمى .

اتذكر ابى ـ رحمه الله ـ حينما كان يواجه مشكلته الوحيدة كل



من افلام ام كلثوم ·· مع احمد عــلام

شهر : كيف يوفق بين مرتبه الشهرى ــ الذى كان مجــرد عشرين قرشا كما قلت من قبل ــ وبين اعباء اسرة كاملة اصغرها أخى خالد وأنا . وعندما ادخلنى ابى الكتاب ، كانت المشــكلة هى من اين يأتى بالقرش الصاغ الذى كان يجب أن يدفعه كل اسبوع لفقى الكتاب .

اتذكر هذا كله عندما اتذكر طفولتى . اتذكر اياما فقيرة بسعادة، شقية بفخر .

فمع تقدم سنوات طفولتى تركزت حياتى فى ثلاثة اشياء .

لقد كانت الاسئلة الثــلاثة التى تشغلنى فى كل لحظـــة من تلك الايام هى :

أولا ــ هل أجد طعاما ؟

ثانيا ــ هل اجد مأوى ؟

ثالثا ــ هل .. اغنى ؟

فى تلك الايام ، كان كل شيء فى حياتى يدور حــول تلك الاســئلة الثلاثة . حياتى نفسها كانت حصيلة لتلك الاسئلة الثلاثة . عنــدما كنت اعمل ، آكل ، انام ، اقرأ ، اسير ، أركب ، اشترى ، اسافر ، اسمع ، اتعلم .. فان هذا كله كان يتم بهدف واحد : أن اغنى بطريقة افضل . ان افهم فى وقت اقل . أن أنقل عواطفى لمستمعى بشــكل ارق ..

كانت هذه هى حياتى .. منذ اليوم الذى بدأت اتعلم فيه الغنــاء وعمرى خمس سنوات ، الى اليوم الذى بدأت فيــه التقى باعجاب الجمهور ..

على اننى وراء كل نجاح حققته ، كنت اتذكر دائما شخصا واحدا هو صاحب الفضل فيه .

هذا الشخص هو : ابى !

كان ابى رجلا فقير الثقافة .. معدم الثروة . ولكنه أعطانى اكبر ثروة . أعطانى حنانه . أعطانى اهتمامه . أعطــانى اصراره على أن انجح .. وان أتعب قبل ان انجح .

ان ابى علمنى درســا هاما . علمنى ان النجـــاح ــ وليس ثمن النجاح ــ هو المهم .

ولقد تعلمت من ابى أشياء كثيرة .. غير مجرد الغناء !

كان ابى يتمسك دائما بأن يؤدى واجبه . فى الواقع ان ضميره كان فى حالة صحوة مستمرة . وبسبب يقظة ضميره هذه ، اضطررت مرة الى الغناء فى حفل عام .. بلا جمهور ! اضطررت الى الغناء اربع ساعات .. دون ان يسمعنى احد غير مائتى كرسى ! كراسى لايجلس عليها فرد واحد . كراسى ظلت تسمعنى لمدة اربع ساعات فى صمت بليغ !

حدث هذا فى سنواتى الغنائية المبكرة فى الريف .

لقد اتفق صاحب الفرح مع ابى على ان اذهب الى الغناء فى قرية بمركز السنبلاوين . واعطى لابى اجرى عن الغناء : خمسين قرشا

وفى الليلة المحددة ركبت الحمار سبع ساعات قبل ان اصل الى القرية .

وعندما دخلنا القرية وجدنا السرادق معدا ، والكلوبات مضاءة .. ولكن بلا جمهور !

لم يكن هناك شخص واحد .. ولا ـ حتى ـ صاحب الفرح !

لقد تصادف ان الجو فى تلك الليلة كان فى منتهى البرد . ليلة من ليالى شهر امشير ! . وفضل الناس الا يغادروا بيوتهم . « .. حيسمعوا مين يعنى ؟! صالح عبا الحى .. والا عبد اللطيف البنا » ؟!!

وذهب ابى الى صاحب الفرح ليعيد اليه الخمسين قرشا .. .. ولكن صاحب الفرح رفض . قال لابى « .. يا سيدى كأنها زكاة » ! قالها وانصرف !

واسقط فى يدى ..

ماذا افعل ؟!

وكان رد ابى : لازم تغنى !

ـ اغنى لمين ؟!

ـ مش مهم .. لازم نخلص ضميرنا !

ـ صح .. ولكن معيش ناس .. مفيش ولا حتى واحد اغنى له



موريس شيفالييه .. عندما زار ام كلثوم فى منزلها ..

ـ برضه مش مهم .. لازم نغنى ونؤدى واجبنا !

.. وفعلا !

وقفت اغنى فى هذا الحفل .. دون ان يسمعنى أحد !

ولكنها كانت ليلة ممتعة ! انها الليلة الوحيدة التى غنيت فيها بالريف .. دون أن تقاطع الخناقات غناءنا !

فبدلا من ان يكون محصول الليلة ثلاث ساعات خناق ونصف ساعة غناء ـ كما كانت العادة ـ أصبحت الليلة غناء فقط .. ولكن بلا جمهور !!

⊙✣⊙

وكان ابى بسيطا فى حرصه على اعطائى مظهر المطربة الكبيرة .. وانا غير مشهورة بعد !

فبعد سنوات من مطلع حياتى الغنائية .. استطعنا أن نستبدل بركوب الحمير ركوب القطارات .. فى سفرنا للغناء بالقرى والمدن الصغيرة .

ولكننا كنا ما نزال نركب بالدرجة الثالثة فى القطار .



ام كلثوم بين الدكتور طـه حسين ومحمد القصبجي .. في حفل خاص اقيم لتكريمها

وقبل أن يصل القطار الى البلدة التى سنغنى فيها بدقائق ، كان أبى يصر على أن نغادر مكاننا فى الدرجة الثالثة .. وننزل الى المحطة من باب الدرجة الاولى .. حتى لا يرانا اصحاب الفرح خارجين من باب الدرجة الثالثة ، فيتصوروا اننى مطربة صغيرة !

⊙✣⊙

وعندما جئنا الى القاهرة اول مرة اصر على ان نسكن فى فندق جوردون هاوس بشارع فؤاد . فنـدق غال . ويصر على ان يأتى لنا الطعام جاهزا من محل « سان جيمس » .. الذى كان من اغلى محلات القاهرة .

فى الواقع ان ابى كانت تدفعه فكرة رئيسية .. وهى الحرص على اعطائى كل مظاهر النجاح . وكان فى سـبيل ذلك ينفق كل دخلنـا ..

فعندما كنا نسافر الى الاسكندرية للغناء ـ بعد سنوات طويلة من عملى ـ كان أكبر مبلغ اتقاضاه فى ذلك الوقت هـو خمسـة عشر جنيها .

وفى اليوم السابق على السفر كان ابى يأخـــذنى الى محلات «هانو» بالاسكندرية لكى اشترى، فساتين جديدة بكل الخمسةعشر جنيها .. ثم يدفع بعد ذلك اجر السفر الى الاسكندرية من جيبه !

وعندما انتقلنا من السكن فى شارع قوله بحى عابدين فى القاهرة .. اصر على ان نسكن فى شقة فاخرة بعمارة بهلر فى حى الزمالك . شقة تضم سبع حجرات وثلاثة حمامات ، ثم طباخ لاعداد الطعام. شقة غالية ايجارهاخمسة وعشرون جنيها ، وهو مبلغ مرتفعجدافى ذلك الوقت ، ويمثل عبئا ماليا باهظا بالنسبة لنا .

◎❖◎

وكان والدى واسع الافق بعيد النظر رغم تعليمه المحدود الذى اقتصر على تعلم القرآن وترتيله . وبعض التدريبـــات التى كان بفطرته يصر على ان اقوم بها .. تبينت فيما بعـــد انها تطبق فى مدارس الكونسرفاتوار الحديثة .

فمثـلا ..

كان ابى يصر على ان اتناول اطعمة معينة ومشروبات معينة .. منها مثلا مشروب عبارة عن خليـط من البيض النيىء وســـكر النبات واللبن الساخن .

وكان يصر على ان انام مبكرا ، واستيقظ مبكرا .. فى الايام التى لا يكون عندى فيها غناء .

وكان يصر على ان امارس يوميا بعض الالعاب الرياضية اللازمة لتوسيع الصدر واطالة الانفاس . لقد احضر لى مثـلا « صاندو » بسلك واحد فى الســـنة الاولى ثم سلكين فى السنة الثـــانية ثم ثلاثة .. وهكذا .

ولذلك فان كتفى الان اعرض من المقاس العـــادى لجسمى ..

وكان ابى لا يألو جهدا فى تعليمى ..

فبمجرد أن بدانا نستقر فى القاهرة ، وبدانا نقيم فى شارع قولة بحى عابدين احضر لى ابى الاســـتاذ محمـــود رحمى لكى يعلمنى العزف على العود . كان رحمى من احسن المتخصصين فى العـــزف على العود. وكان أبى يطلب منه ايضا ان يدربنى على غناء اكبر عدد

ممكن من التواشـــيح .. لا لكى اغنيها ، بل لـــكى تكون ارشيفا غنائيا احتفظ به فى عقلى .

وكان محمود رحمى يظل يدربنى طوال النهار فى حضـور ابى . وكان ابى يدفع له ثلاثة جنيهات كل شـهر ، وهو مبـــلغ مرتفع بمقاييس تلك الايام .

وكنت حتى تلك الفترة ما ازال اغنى وانا ارتدى العقال !

وكان ابى هو صاحب فكرة ارتدائى العقال عندما بدات اغنى فى الريف .

كان يرى اولا أن العقـــال زى جاد يناسب ما كنت اغنيــه من القصائد والمدائح النبوية .

ويرى ثانيا أن منظر فتاة تغنى ليس منظـرا مالوفا فى الريف . فالعقال والبالطو الاصفر هما حل وسط فى رايه .

ولكن هذه الاسباب لم تعد ضرورية عنـــدما بدات استقر فى القاهرة ، لان منظر فتاة تغنى كان شيئا مالوفا فى القاهرة .

وابى كان اول من تحمس عندما فكرت فى التخلى عن الغناء مع التخت القديم واستبداله بالغناءعلى الالات الموسـيقية . فحتى سنة ١٩٢٦ ، لم تكن هنالك موسيقى تصاحبنى فى الغناء. كان يقف معى على المسرح اربعة فقط فى زى المشايخ ، منهم ابى واخى خالد

وكانت هذه الطريقة لها معجبوها الذين يتزايدون كل يوم .

.. ولكنى كنت أريد أن اتطور .

والاهم من ذلك اننى أريد أن اتطـور بارادتى ، قبـــل أن أكون مرغمة على التطور .

وقلت لابى اننى افكر فى الغناء على الآلات الموسيقية .

وتحمس ابى . ولكنه اصر على نقطة هامة . قال انه لا يريد أن تكون المسألة تطورا والسلام . وانما يجب ان يكون هذا التطور قويا .. لا يريد أن يصاحبنى «تخت» موسيقى والسلام .. وانما يجب الا يكون هذا التخت مماثلا لتخت العوالم !

.. وفعلا ، دفع ابى اكبر ما يمكنه لكى يحقق فكرته .

لقد بدات اغنى بمصاحبة اوركسترا لاول مرة فى مساء الخميس

٧ اكتوبر سنة ١٩٢٦ . وكانت اول اوركسترا موسيقية اتفق معها ابى تضم الاساتذة محمد العقاد ، وهو من امهر عازفى القانون وقتها ، والاستاذ سامى الشوا على الكمان ، والاستاذ محمد القصبجى على العود .

وفى اول ليلة غنيت فيها مع الاوركسترا نجحت التجربة نجاحا هائلا . ودفع لى صديق افندى متعهد الليالى خمسين جنيها عن الليلة الاولى فقط ، ثم وقع معى عقدا بدفع خمسة وثلاثين جنيها عن الليلة بعد ذلك .

وكان ابى يدفع الكثير لتنفيذ اصراره على الاستعانة بأحسن الموسيقيين .

كان يدفع لمحمد العقاد ثلاثة جنيهات ونصف جنيه عن الليلة الواحدة . ولسامى الشواجنيهين ونصف جنيه ، ولمحمدالقصبجى جنيهان . فى الواقع ان الصحف اجمعت وقتها على تسمية هؤلاء الثلاثة بـ « اساطين الموسيقى الشرقية » .

فى الواقع ان هذه ـ وغيرها كثير ـ كانت تؤكد حقيقة كبيرة كنت المسها من ابى ، وهى اصراره الدائم على ان انجح دائما .. مهما تحملنا من تكاليف . اصراره على أن التطور لا يكفى أن يكون مجرد تطور .. بل من الضرورى ان يكون تطورا الى الاحسن .. والا فلا داعى له !

⊙✣⊙

.. ولكنى مع هذا كنت اختلف مع ابى فى بعض الاحيان !

لقد عارضت ابى مرة واحدة . عارضته بشدة . ولكنها كانت المرة الوحيدة التى صفعنى فيها صفعة ساخنة !..

ذهبنا الى البنك العقارى ..

كان البنك يبيع ارضا بالمزاد العلنى وفاء لدين متعلق بهذه الارض . مساحة الارض تزيد على مائتى فدان .

وفى المزاد قام محام من المنصورة بشراء مائة وثمانية أفدنة من الارض المعروضة للبيع .

واراد ابى ان يشترى خمسين فدانا من هذا المحامى .



فى راس البر .. صــورة التقطت لام كلثوم على الشاطىء الذى اعتــادت لسنوات طويلة أن تستجم عنده ..

ولكن الارض كانت محملة بديون كثيرة ، وهى ديون تعطى الدائن حق تتبع الارض فى يد اى مالك لها .

لهذا رجوت ابى الا يشترى الخمسين فدانا الا بعد أن يسدد المحامى كل الديون المتعلقة بها ، لان الارض هى التى تضمن الوفاء بديونها ..

ولم يتمسك ابى بالشرط الذى طلبته منه .

ولكننى صممت على كتابة هذا الشرط فى العقد .

كانت حجتى بسيطة .

ان ابى شرب نفس المقلب مرتين من قبل .

فى مرة اشترى ارضا باسمى دون ان يشترط وفاء المالك الاصلى بالديون المتعلقة بالارض . لقد اكتفى بكلمة شرف من المالك .

ان المالك وعد ابى بأنه سيدفع الديون خلال عدة اشهر . واعتبر ابى أن هذه الكلمة كافية ، ثم طلب منى توقيع العقد ، فوقعت . وقبل أن تمر شهور قليلة ، فوجئنا بالحجز على الارض وفاء للديون التى لم يسددها المالك الاول . وخسرنا الارض ... والمال الذى دفعناه ثمنا للارض .

⊙❖⊙

.. وتكررت هذه الحكاية مرة ثانية !

لذلك ، فعندما اراد ابى - للمرة الثالثة - أن يشترى ارضا ، صممت فى هذه المرة على أننى لن أوقع العقد الا اذا نص على مسئولية المالك الاصلى فى الوفاء بالديون .

ان الارض التى ضاعت منا مرتين من قبل كانت أقل من عشرة فدادين ..

ولكن الارض التى نشتريها هذه المرة هى خمسين فدانا . والاهم من ذلك أننى اشفقت من ان يضيع ما ادخرناه فى عشر سنوات مرة أخرى فى غمضة عين .

ان الثمن الذى كنا سندفعه فى المرة الثالثة هذه ، كان حصيلة عملى وعمل أبى طوال عشر سنوات كاملة حتى سنة ١٩٣٥ ..

حصيلة كفاح شاق وطويل استمر طوال السنوات المبكرة من عملى الفنى . سنوات اعتز بها . وبعد هذا المبلغ كان على ان انتظر عشر سنوات اخرى على الاقل حتى ادخر مبلغا آخر من جديد .

المهم ..

استمرت المناقشة تجرى بين ابى وبينى فى البنك العقارى .. وفى حضور عدد من الناس ، من بينهم مالك الارض الذى يعمل محاميا فى المنصورة .

ولكن واحدا من الحاضرين مع المالك اثار اعصاب أبى على بدرجة كبيرة .

ولم انتبه الا وهو يصفعنى بقسوة .

ولم ابك هذه المرة . لقد تغلب عنادى على عواطفى .

وقلت لابى : اما الان .. اما بعد هذه الصفعة .. فاننى لن اوقع العقد ابدا الا اذا نص على هذا الشرط ! الان .. لن اقبل كلمة شرف من المالك . لن اقبل سوى شرط مكتوب ..

.. وفعلا ! .

اضطر المالك فى النهاية الى توقيع العقد متضمنا الشرط الذى اصررت عليه .

و .. لم يفاتحنى ابى فى هذا الموضوع الا بعدها بسنة كاملة .

قال لى : لقد كان معك الحق يوم اختلفت معى بشان الارض . لقد ذهبت اليوم الى بنك مصر فأخبرنى بأنه كان سيحجز على الارض وفاء لديونها القديمة .. مما اضطر المالك السابق الى ان يقوم بتسديد ديونه .. واصبحت الارض ملكا لنا من تاريخ الوفاء بالديون . (●)

◎❖◎

ان امى وابى هما صاحبا الفضل الاول على فى حياتى .

اما الثالث ، فهو الشيخ ابو العلاء .

لقد تحدثت عن الشيخ ابو العلاء من قبل .

ويكفينى ان اقول انه جعلنى لاول مرة افهم معنى ما أغنيه .

(●) تبرعت ام كلثوم بكل اراضيها لافراد اسرتها .

عندما اقمت فى القاهرة لاول مرة كنت اسكن ـ مع والدى واخى خالد ـ فى فندق جوردون هاوس ، كان للفندق شرفة تطل على شارع فؤاد

وكان الشيخ ابو العلاء يظل يغنى لى فى الشرفة ، ويدربنى على الغناء ، طوال الليل . لم يكن يتوقف الا فى الصباح .. عندما يبدأ الترام فى السير !

والحقيقة ان الشيخ ابو العلاء لم يحصل على ما يستحقه من الشهرة .

كان التيارالسائد وقتها هو تيار الاغانى الخليعة . ولم يكن هذا لونه . كان ابو العلاء يصر على غناء الشعر العربى الاصيل .

واحيانا كان الجمهور يعامله بقسوة !

لقد انزله الجمهور مرة من على المسرح فى كازينو البوسفور ،لكى يستمع الى عبد اللطيف البنا بدلا منه !

ولكن الشيخ ابو العلاء كان يتحمل هذه المصاعب ..ويضحك منها

وحتى عندما بدا المرض يتردد عليه لم تختف الابتسامة من وجهه .

لم تختف ابتسامته .. حتى عندما عرف حقيقة مرضه .

ولم تختف ابتسامته .. حتى عندما اصيب بالشلل .

ولكن الموت كان اكبر منه . لقد هزمه فى النهاية ، وسحب منه تلك الابتسامة التى لن انساها .

مات الشيخ ابو العلاء فى مساء الاربعاء ٥ يناير سنة ١٩٢٧ .

لقد كان الشيخ ابو العلاء والدا ثانيا لى . ولن يقل وفائى وامتنانى له ، عن وفائى لامى .. وأبى ..

⊙✣⊙

عند هذا الحد انتهت مذكرات أم كلثوم . من الفصل التالى تبدا مذكرات أخرى . مذكرات «عن» أم كلثوم وليست منها ، مذكرات منى عنها ..



« .. التى كانت الارض دنياها
والســـــــماء حياتهـــــا
والنجـــــوم مستمعيهـــا »

عندما تغني أم كلثوم

أم كلثوم
التي يعرفها الناس!

مساء الخميس ..

كل شخص فى مدينة طنطا يبدو عليه خارجا من منزله .

« هذه ليلتنا الكبيرة » .. هكذا قال لى مدير الفندق قبل أن نغادره .

الناس بداوا يتحركون فى الشوارع . واحد هنا . واحد هناك هناك كثير من الضحكات والتحيات حولنا . رجل يتمتم لزميل له فى صوت خفيض مشيرا نحونا : « .. يا ابنى دول من مصر . دول يظهر من سميعة أم كلثوم » !

لقد ذهبت الى طنطا لاشاهد هذا الحفل كمجرد نموذج لحفلات ام كلثوم . ولكنه فى الواقع لم يكن يختلف عن اى حفل آخر لها.. الا فى المكان !..

لا تكاد تمر دقيقة من الزمن ، او مائة متر من السير ، دون ان تسمع اسم أم كلثوم على الألسن . ان مدينة طنطا بدت فى ثوب اخر وشكل آخر هذه الليلة . فرح . ان طنـــطا ــ من النظـرة الاولى ــ قد اعدت نفسها لهذه المناسبة .

وفى هذا المساء بدات طنطا تعبر عن عواطفها نحو ام كلثوم .. عواطف تدخرها طنطا لهذه المناسبة منذ زمن طويل مضى . هذا واضح من كل هذه الانوار . كل هذه الزينات . كل هؤلاء الناس.

مظاهر الفرح والزينة تقود كلها الى مكان واحد : الاســتاد الرياضى . هذا هو اضخم مكان تملكه طنطا . لهذا اختارته المدينة مكان حفل ام كلثوم الليله . سرادق .. فى الهواء الطلق .. مضىء .. منظم .. واسع . خمسة آلاف كرسى .



« هل راى الحب سكارى .. مثلنا » ؟

بعض الكراسى الامامية مازال خاليا . معظم الكراسى تم شغلها الضحكات تأتى من الخلف . ضحكات يقظة . الجميع يبدو عليهم أنهم استعدوا مبكرا لهذه الليلة . والجميع يبدو عليهم أنهم ناموا عدة ساعات بعد ظهر اليوم استعدادا للسهر مع أم كلثوم

.. الجميع ظلوا يدربون انفسهم طوال النهار على الاستماع لام كلثوم طوال الليل !.

داخل السرادق يتزايد عدد الداخلين.. ويقل حجم الضوضاء.

داخل المسرح تجلس الفرقة الموسيقية خلف الستارة المغلقة . من وراء الستار تستطيع أن تسمع ذلك الالتحام المدهش للاصوات الانسانية . حول الفرقة تتصارع باقات الورد لتحتل مكانها فوق المسرح .

ومن ركن جانبى خلف الستارة تستطيع أن ترى الجمهور : ياه .. كل هذا العدد ؟ !

ان ويليام ليردكتب فى القرن السادس عشر يقول : «مادام الغناء طيبا بهذا الشكل .. فأتمنى من كل الرجال أن يتعلموه » .. معه الحق !

ولكن نصف جمهور الليلة نساء . اننى أستطيع بصعوبة أن أسمع خلفى سيدة تقول لزميلتها التى رأيتها بالصدفة : انت فين يا حبيبتى ؟ ايه الفستان الجنان ده ؟ طبعا اشتريته مخصوص علشان حفلة أم كلثوم . هىء .. هىء .. هىء ! !

⊙❖⊙

بعيدا عن المسرح ، والجمهور ، تستطيع ان ترى أم كلثوم وهى قادمة فى الطريق . لقد دخلت من الباب الخلفى للسرادق . باب سرى . باب يؤدى الى غرفتها الخاصة فى المسرح .

ومع ذلك فان عددا من الجمهور تسلل الى هناك فى انتظار أم كلثوم . انهم يرغبون فى مصافحة أم كلثوم ، أو حتى رؤيتها . أمنية .

خلال لحظات كان الجمهور قد تزاحم حول ام كلثوم . أين هى ؟ لا استطيع أن أراها .

ونظرا لان وجيه اباظه محافظ المدينة قد تنبأ بذلك مقدما ..



ام كلثوم تستمع ـ تستمع الى تعليق الجمهور ..

فقد بدأ يرجو الجمهور ان يفسح الطريق . لحظة .. ولحظة .. ثم بدأ الجمهـور يسـتجيب للرجاء . بدأ يفك الحزام من حول ام كلثوم . وبدات أم كلثوم تخترق هذا الحصار الجماهيرى كما لو كان حزاما من الاسباجيتى !

.. ونحن فى مساء الخميس .

ان ام كلثوم تقيم حفلاتها دائما يوم الخميس. لقد اصبح لديها كومة من ايام الخميس هذه . كومة تشكل رصيدها .. ويعرفها الناس من خلالها . ان عمرها كله هو مجموع ليالى الخميس التى غنتها . حصيلة فنها كله تنفقها ليـلة الخميس . فى تلك الليـلة يقول لسانها سرا «اغنى واغنى واغنى .. واورى الخلايق فنى» . من اجل هذه الليـلة تعيش ام كلثوم . ان الموهبة هى فن تنمية الموهبة . وموهبة ام كلثوم تتركز فى ان كل شيء فى حياتها يعمل بهدف تنمية موهبتها التى تبديها فى غنائها ليلة الخميس .

⊙❖⊙

وعنـدما بدات ام كلثوم بدأ صحفى اجنبى يستمع اليها من خلالى .

قال لى : لا أدرى سر هذه العلاقة بين الجمهور وبين ام كلثوم . انها لاتخترع . لاتبتكر . لا تخلق . انها ليست كاتبا ، ولا مؤلفا ، ولا ملحنا . انها مجرد سيدة تغنى . تغنى الحان الآخرين وكلمات الآخرين .

وقلت له : نعم . هى سيدة . وهى تغنى . ولكنها فنانة حينما تغنى . ساحرة عندما تكون فنـانة . قمة عندما تكون ساحرة . متواضعة حينما تكون فى القمة . انسـانة حينما تكون متواضعة .

ام كلثوم هى هذا كله . راقبها مثلا وهى تغنى ..

ان ام كلثوم حينما تغنى ، فانها لا تكون مجرد مطربة تقف امام ميكروفون فوق مسرح بين جمهور داخل صالة وسط مدينة .

انها تجعل الميكروفون يتراجع والمسرح يهتز والجمهـور يقفز و ... تسهر والبلد يرقص والفن يغنى . انها تصـنع من صوتها وعواطفها ومشاعرها شبكة ضخمة تمسك بهم ـ بمستمعيها ـ بحيث يصبح كل شيء فيهم كالآخر . كل واحد مندمج فى الآخر .

في تونس .. بين الجماهير .. بعد ان افتتحت شارعا اطلقوا عليه اسم « نهج ام كلثوم » ..

نحن ، أنت ، هم ، هي ، هو ، كل شيء يفقـد شخصـيته ويجد معنى جديدا وعواطف جديدة لمدة محدودة من الزمن .

ان المستمع يقبل معها على الحيـاة في بداية غنائها ـ رباعيات الخيام ـ حينما تنادى : « هبوا املأوا كأس الطلى قبل ان .... تملأ كأس العمر كف القدر » .

هكذا يطرب معها الجمهور . دعوة صريحة للاقبال على الحياة والتمسك بها . الجمهور مقتنع .

ومع ذلك ، لا تكاد تفوت سـاعة ، حتى يقتنع الجمهور بشيء آخر . يقتنع بغنـائها متوسلة الى الله : « ان لم اكن أخلصت في طاعتك ... فانني أطمع في رحمتك » .

لقد رغب الجمهور في الحياة منذ ساعة ، ثم طلب الرحمة منذ ساعة . رغب الجمهور في الخمر منذ لحظة ، ثم استغرب ذلك بعد لحظة . استغفر الله .

ولقد كان الجمهور مقتنعا بما غنته أم كلثوم في كل مرة . ان أم كلثوم غنت رباعيات الخيام . وهي في غنائهـا جسمت نصف الجنة ، ولكنها عادت بعد قليل تحذر بنصف الجحيم . النتيجة ! خرج الجمهور بأذن مع بداية القصيدة ، وأذن مع نهايتها . خرج بعين في الجنة ، وعين في النار . بقلب يرغب . وقلب ـ هو نفسه ـ يرجو المغفرة . سبحان التواب الرحيم .

وتستطيع أن تراقب الجمهور بطريقة اخرى . الجمهور يقفز في بداية عمر الخيـام . الجمهور يصيح ، يهتف ، يصفق . وفي نهاية القصيدة فان الجمهور ما زال يصفق ، ولكن بعد أن جلس على الكراسي . انه يصفق ، انه يتحسر . انه يصفق بحسرة .

◎❖◎

والجمهور بالنسبة لأم كلثوم هو جزء من غنائهـا . ان دوره رئيسي جدا .. تماما كدور الملحن والمؤلف والعـازف . غنـاء أم كلثوم هو أحلى طرب يسمعه هذا الجمهور . وتصفيق الجمهور هو أحلى اغنية تسـمعها ام كلثوم . لو لم يوجد هذا الجمهـور ما كانت ستوجد أم كلثوم . ولو لم توجد أم كلثوم ما كان سيوجد هذا الجمهور . في الواقع لايمكن تصور أم كلثوم بغير هذا الجمهور ، ولا هذا الجمهور بغير ام كلثوم . الشيء وظله . الصوت وصداه .



« اللي فات من عمري كان لك من زماني »

الشهيق والزفير . كلاهما يكمل الآخر . يفسر الآخر . جزء من الآخر .

لقد تخصص هذا الجمهور فى سماع ام كلثوم .. ولكن الحقيقة الاخرى هى ان ام كلثوم تخصصت هى ايضا فى « سماع » هذا الجمهور . ان ام كلثوم تحاول أن ترضى ذوق كل مستمع. بالطبع هى لا تفعل . لا تستطيع . لا يمكن . مستحيل . ومع ذلك فهى تحاول .

ان ام كلثوم ـ قبل ان تغنى بلحظات ـ تتطلع الى الجمهور من خلف الستار. نظرات سريعة فاحصة. مساء الخير أيها الجمهور !

كل صيحة من الجمهور لها معناها الخاص فى قاموس ام كلثوم. انها تتعامل مع جمهورها بشفرة سرية . بكلمة . بنظرة . باشارة . بهمسة .

⊙❖⊙

وعندما تبدأ فى الغناء فانها تبدأ فى اطلاق بالونات اختبار غنائية . آه هنا .. وآه هناك . حذف هنا .. واضافة هناك .

وللحظات قليلة فان أم كلثوم ـ بينما تغنى ـ تتبادل الادوار مع الجمهور . هو يغنى ، وهى تستمع ! هو ـ أقصد ـ يصفق.. وهى تبتهج . هو يحيى ، وهى تتدلل . علاقة تقوم على الايقاع . ايقاع الحياة : خذ وهات . ايقاع البحر : مد وجزر . ايقاع السماء : نور وظلام. ايقاع الرقص : هى وهو. انت فى هذا الحفل تشعر بنفس الايقاع : غناء من أم كلثوم .. وتصفيق من الجمهور. خذ وهات . خذ غناء .. وهات سعادة .

فى هذه اللحظات .. تجد أن عينى ام كلثوم وأذنيها متفرغة تماما لسماع الجمهور . انه يهلل .. هى تتوقف . انه يطرب .. هى تستمع . انه يطلب التكرار .. هى تعيد . انه يلح .. هى تعيد مرة أخرى . انه يتذوق .. انه .. انه يصفق لام كلثوم .

مرة اخرى تستمع ام كلثوم الى التصفيق . انها هنا تحاول أن تصبح كالمكتشف : كل شيء أمامها له معنى ورمز . تصبح كقبطان سفينة : يستدير دائما ليكون مع الريح . تصبح كجهاز سيزموجراف : كل هزة طرب تسجلها . تصبح ككيميائى ! اذا اضفنا كذا لكذا .. تكون النتيجة استمتاع الجمهور . تصبح كالاطباء الصينيين القدامى : تعرف كيف تقيس كل نبضة قلب .



« حاضر .. حاضر »

تقولها ام كلثوم لجمهور المغرب الذي يطلب اعادة الاطلال ..

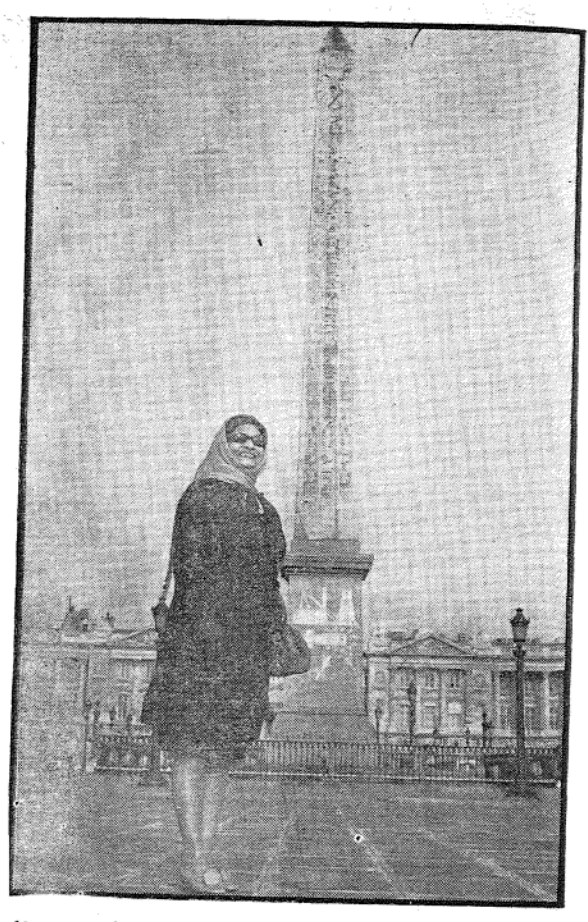
ان أم كلثوم بالنسبة لهذا الجمهور هى تاريخ . انهـا تاريخ اسلوب كامل فى الموسيقى والغناء والطرب. تاريخ ينتظر أم كلثوم حتى يطوى صفحاته . حتى ينصرف . فالغنـاء الفردى ـ بهذا الشكل .. بهذا الاسلوب .. بهذه الطريقة ـ والطرب الغنائى .. بهذه الآلات ، بهذا التكرار .. كل هذا كان من المفروض أن ينتهى منذ سنوات طويلة مضت . ولكن أم كلثـوم اضافت ملحقا لهذا الفصـل المنتهى فى تاريخ الموسـيقى الشرقية . أم كلثوم أعادت الشباب للموسيقى الشرقية . هى نفسها دواء للشباب . جرعة ـاب . هى نفسـها أطالت انفـاس هذا النوع من الغناء بعـد أن تقطعت انفاسه منذ زمن طويل .

وأم كلثوم انفاسـها طويلة غنائيـا . طويلة .. مستمرة .. مرتفعة . انها ايضا تجد ان الجمهور يطلب منها ما لا يقبـله من غيرها . استثناء . ان الكلمات التى يقرأها النـاس فى دقيقة ، ويغنيها المطربون فى عشر دقائق .. تغنيها أم كلثوم فى ساعتين . المقطع الواحد تعيـده مرة ومرة و .. ثمـانى مرات ! فعلا ثمـانى مرات ، كما حدث فى اغنية « انت عمـرى » . وفى كل مرة يزيد انفعال الجمهور ولا يتناقص . انفعال لا يتناقص ، ولا يتجمد ، ولكنه يتضاعف .

وهذا الجمهور ينقل انفعاله واعجابه بأم كلثـوم من جيل الى جيل . وراثة . خذ مثلا ما كتبه جمال الدين حافظ عوض سنة ١٩٢٦ يقول « كانت الآنسة ام كلثوم ، وما زالت الى اليوم ، موضع اعجاب الناس من الفنانين والموسيقيين واصحاب الآذان السليمة. وكانت لاتحيى ليلة تنشد فيها الا ويمتلىء المكان ويغص بالحضور. وذاع اسمها وانتشر صيتها وتهافت الامراء والاعيان على الاستمتاع بصوتها المطرب فى حفلاتهم الخاصة » .

ولو حذفت كلمة «كانت» مما كتبه جمال الدين حافظ سنة ١٩٢٦ فسوف يظل الوصف صادقا اليـوم . ما زال الجمهـور هو هو ، بعد أن اصبح أكبر . ما زال الاعجـاب هو هو ، ولكن اضخم . ما زال الانفعال هو هو ، ولكن اقوى .

استمع اليها مثلا فى اى حفل عام وهى تغنى . راقب الجمهـور ايضا وكيف ينفعل .



امام المسلة المصرية في باريس - المكان الوحيد الذي اختارته ام كلثوم للتصوير امامه ..

انها تغنى : « فات الميعاد .. وبقينا بعاد » . خسارة . انها خسارة عاطفية شخصية لكل واحد من المستمعين .

اذا عدت خلفـا راقبها وهى تغنى : « **أنا لن أعود اليك .. مهما استرحمت دقات قلبى** » . حرام !

أو وهى تغنى « **ما بين بعدك ، وشوقى اليك .. وبين قربك ، وخوفى عليك .. دليـلى احتـار ، وحيرنى** » . مشكلة . مشكلة عاطفية شخصية يحس بها كل مستمع من هذا الجمهور .

واذا تقدمنا الى الامام فسنستمع اليها تغنى كلمات ابراهيم ناجى

يا فؤادى لا تسل أين الهوى   كان صرحا من خيال فهوى
اسـقنى واشرب على أطلاله   وارو عنى طالما الدمع روى

هكذا تبدأ أم كلثوم فى قصـيدة الاطلال . ولكنها ما تكاد تصل الى آخر خمس كلمات حتى يصبح كل شىء حولها اطلالا . أطلال غناء ، أطلال حب ، أطلال جمهور . أم كلثوم نفسها تصبح أحيـانا اطلالا ! لقد رآها احمد رامى مرة وهى تأخذ حقنة طبية قبل الغناء لكى تساعدها على الوقوف ساعة وهى تشكو المها .

كل شىء يصبح أطلالا ، ما عدا عواطف الجمهور نحو أم كلثوم . ان الجمهور يعجب بها كما لم يعجب بها من قبل . وهى تغنى له كما لم تغن من قبل .

⊙❖⊙

والجمهور يقبل من ام كلثوم ما لا يقبله من غيرها . فى الواقع هى تحس ان لديها توكيلا على بياض من جمهورها لكى تختار له ، وتغنى له ما تختاره ، وتغير فيما تغنيه .

الجمهور يعـلم مثلا ان قصـيدة ابراهيم ناجى تبـدأ هكذا : « يا فؤادى رحم الله الهوى » . ولكنه يغفر لأم كلثوم ان تغنيها : يا فؤادى لا تسل اين الهوى .

وفى قصيدة ريم على القاع لاحمد شوقى يقول الشاعر « فرب منتصت والقلب فى صمم » . ولكنه يغفـر لام كلثوم ان تغنيها : « فرب مستمع والقلب فى صمم » .

الجمهور يغفـر لهـا اذن ما لا يمكن غفـرانه . انه جمهور استثنائى . جمهور حساس لكل كلمة من ام كلثوم . كل همسة .

كل آه . قليل من النغم طرب . قليل من الآهات متعة .

وحينما تغنى ام كلثوم فكل شىء يصبح فى خدمة غنائها . قدماها تتحركان ــ خطوتين الى الامام وخطوة الى الخلف . يداها تساعدانها فى الغناء : برقة كما فى اغنية « رق الحبيب » . بعنف كما فى نشيد « فدائيون » . بكبرياء فى أغنية « فات الميعاد » . بتفاؤل فى اغنية « انت عمرى » . بحسرة فى قصيدة « الاطلال » . بابتهال فى قصيدة « ولد الهدى » . بمنديل فى جميع الاحوال .

ان وجهها يعبر بانفعال . يداها تحتضنان الهواء . عيناها تؤكدان المعنى . اذناها تجمعان الحصيلة .

الحصيلة هى أن كل مستمع يحس أن ام كلثوم تغنى له شخصيا . تغنى له على انفراد .. ولكن على مسمع من الملايين .

الحصيلة أنها عندما تغنى فان الجمهور يحس ان الحياة هى موت بغير غناء . بغير طرب . بغير حب .

الحصيلة أن ام كلثوم قامت بعملية تأميم لعاطفة الحب . اصبح الحب ملكية عامة . حبا للجميع .

وأنت لا تستطيع أن تسأل أم كلثوم : ما هو الحب ؟ اذن .. اسأل من يصلى : من هو الله ؟ اسأل من يعيش : ما هى الحياة ؟. اسأل من يتنفس : ما هو الهواء ؟ !

الحب الذى تعبر عنه أغانى ام كلثوم هو حب من نوع خاص . حب يجعل النهار أطول والليل أقصر والقمر ينير اكثر والنجوم تصبح أجمل وأكبر والشجر قبل الربيع نراه أخضر .

ان الفيلسوف الاغريقى افلاطون كان يرى أن الحب ــ من بين جميع آلهة الاغريق ــ هو أحسن صديق للرجال. احسن مساعد لهم . أحسن شاف لأمراضهم .

وهذا المفهوم نفسه تجده فى اغانى أم كلثوم . حب للحب . تماما كالفن للفن . كالحياة للحياة . ان الحب ــ فى اغانيها ــ يتألم بلذة ، يضحى فى صمت ، يتعذب فى سعادة ، يقاسى من بعيد ، انه حب لا ينتظر تعويضا عن عذابه . لا يتوقع مكافأة . الحب مستمر . شىء لا مفر منه . حكم ابدى . قدر . انه عاطفة يبحث عنها العاشقين مع علمهما مقدما بانهما سيتألمان . ولكنهما ــ فى



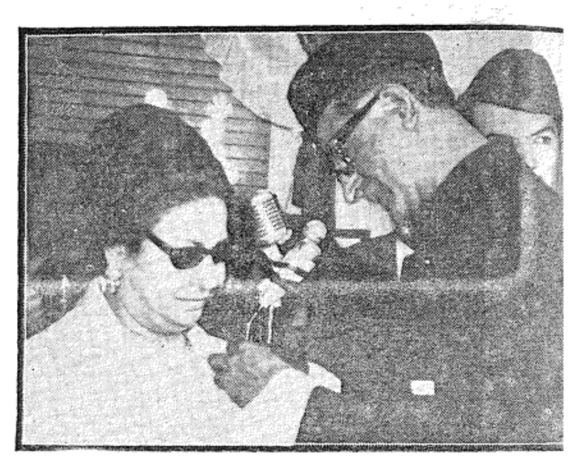
امام مسرح الاوليمبيا فى باريس .. تزاحم الجمهور على باب الدخول ليستمع الى ام كلثوم ..

النهاية ـ يقولان مع ايمرسون : « كل المتع الاخرى لا تستحق آلامها .. الا الحب » !

وام كلثوم ـ فى تعبيرها غنائيا عن هذا المفهوم من الحب ـ انما تعبر عن مفهوم أساسي طلبه الانسان من الحب زمنا طويلا . فالانسان ـ منذ البداية ـ يعيش بالحب . وفى الحضارات القديمة جعل الانسان للحب الها . فالحب هو الأقدم بين كل الآلهة • موجود قبل كل الآلهة . هكذا تصور الاغريق مثلا . ان كيوبيد عندهم له صفات اربع : انه طفل دائما . اعمى دائما . هار دائما . يرمى سهامه دائما .

والحب فى اغانى ام كلثوم لا يعبر عن موقف غالبا . انه يعبر عن حالة نفسية .

ان الهوى فى اغانيها بلا مواعيد . وعندما يأتى فانه : غلاب . هجره مرار وعذاب . يومه بسنة . كل شيء فيه بقضاء .
والحبيب فى اغانيها له : ابطاء المذل المنعم .. وتجنى القادر



ارفع وسام باكستاني لام كلثوم .. في حفل اقامه لها سفير باكستان بالقاهرة من اجل هذه المناسبة ..

المتحكم . يحرمها من رضاء . يشجيه انينها .

انها تهجره حتى تنسى هواه وتودع قلبه القاسي . ولكنها تكتشف انها تفكر فيه وهي ناسية !

انها تناديه على مشهد من « .. الليل وسماه ونجومه وقمره وسهره » .

انه عمرها . انه حبيب الامس .. وحبيب اليوم .. وحبيب غدا . حبيب لكل العصور .

انه يغمض عينيه حتى يراها . يوحشها وهي أمام عينيه .

وحبها له فيه « وصال ، ودلال ، ورضاء ، وخصام . من ده وده » .

و ـ الحب كده ..

ازاى كده ..؟

أهو ده اللي جرى !

انها اذن صورة تحدد ابعاد الحب : محير دائما ، مؤلم دائما ، ممتع دائما . انه حكم على الجميع . ضرورى للجميع . انه حب للجميع ! انه حب لا يعبر عن الواقع كصورة فوتوغرافية . انه يجمع الواقع كلوحة زيتية . ليس موقفا .. ولكنه حالة . ليس حقيقة .. انه خيال .

⊙✥⊙

ولكن الحب فى اغانى ام كلثوم لا ينفرد بهذا الوضع الخاص . وضع استثنائى . ان كلمات الحب ايضا لها وضع استثنائى .

لقد سمعت مرة رئيس وزراء ولاية بماليزيا يقول لام كلثوم : « اننا نتعلم اللغة العربية من خلال اغانيك » !

فى الواقع ان ام كلثوم تعيد الحياة الى كلمات كثيرة فى اللغة العربية هجرناها منذ مدة طويلة . انها تقوم بعملية تلميع لكلمات علاها صدأ كثير ، فتصبح براقة ناصعة .. ومفهومة ! انها تقوم فى الواقع بالتوسط بيننا وبين اللغة العربية الفصحى . وساطة مقبولة من الجانبين .

خذ مثلا هذا البيت من قصيدة أحمد شوقى (سلوا كؤوس الطلا)

باتت على الروض تسقينى بصافية
لا للسلاف ولا للورد رياها

أو ـ هذا البيت :

حمامة الايك من بالشجو طارحها
ومن وراء الدجى بالشوق ناجاها

ان أى صحيفة لو نشرت هذه الابيات الان لاحتاجت الى توزيع قاموس معها لشرحها . قاموس تقول فيه ان « الايك » هو نوع من الشجر . وان « الدجى » معناها الليل . و « الشجو » هو الهوى

لن تجد هذه الكلمات اليوم فى كتاب ، او مجلة ، او صحيفة ، ولا حتى فى مؤلف جامعى . نادر .

⊙✥⊙

وسحر ام كلثوم يتركز اولا فى شخصيتها . وثانيا فى صوتها . صوت ابعاده من ٦٠ الى ١٦ الف ذبذبة فى الثانية . بينما اقوى صوت يليها يصل الى ١٠ آلاف ذبذبة فى الثانية فقط . حقيقةعلمية

هذا الصوت هو الذى عطل المرور فى حى شبرا بالقاهرة ساعتين



دموع على مسرح الاولمبيا في باريس .. دموع لم يرها احد ..

عندما اذيعت اغنية « انت عمرى » سنة ١٩٦٤ . حى شبرا يسكنه مليونان من السكان .

هذا هو الصوت الذى هتفت له الجماهير فى تونس قائلة : اهيكا ام كلثوم .. وعبرت عنه فيروز عنـدما ظلت تردد لها : الله يخلى اياك. ويسمونه فىباكستان : ممتازة الامتياز. واستقبلوا صاحبته فى السودان والمغرب والكويت استقبال رؤساء الدول !

هذا هو الصـــوت الذى كتبت عن صـــاحبته مجلة « تايم » الامريكية تقول : « ان اسطورة أم كلثوم تكبر وتستمر منذ ٣٢ عاما لانها اشهر واقوى شخصية فنية فى الوطن العربى . وليست هنـاك اية علامة على ان كوكب الشرق تتأثر بالزمن ، لان العرب يؤمنـون بأنه يزيدها قوة ويضيف الى صـــوتها غنى وصفاء . وفى الشرق الاوسط هناك شيئان لا يتغيران ولا ينال منهما الزمن .. أم كلثوم والهرم » .

اما جريدة اوبزرفر البريطانية فتقول : « ان ام كلثوم هى نجمة الغناء العربى التى تجمع كل العرب حول أجهزة الراديو فى الخميس الاول من كل شهر خلال موسمها ابتـــداء من الخريف حتى مطلع الصيف . بينما المحظوظون الذين يستمعون اليها مباشرة فى القاعة ر.رتفع صوتها فى حنان ويتماوج مع المشـــاعر ويعبر عنها . ان أم كلثوم تعتبر مؤسسة وطنية راسخة تماما كالهرم الاكبر » .

وقالت « لومانيتيه » بعد حفلهـــا فى باريس : انهـــا فنانة تملك سلطانا مدهشا تؤثر به على الجماهير .

وقالت « الاسوشيتدبرس » : لقد شهد الشرق الاوسط ثورات وانقلابات ، وطرد ملوكا ، وظهر رجال اقوياء ولكن شعبية ام كلثوم بقيت كما هى منذ اكثر من نصف قرن .. فهى ملكة الغناء العربى بلا منازع .

اما جريدة « فرانس سوار » فتكرر : ان شـــهرة ام كلثوم فاقت شهرة اعظم المطربين فى العالم الذين استمع اليهم الفرنسيون على مسرح الاوليمبيا . بل انها اصبحت اشـــهر من جان دارك وتفوقت على اديث بياف وماريا كالاس . ان شهرة ام كلثوم فى المنطقة العربية لاترتفع اليها ولا تعادلها شهرة اى نجمة للغنـــاء فى هذا الجزء من العـــالم .



عندما تغني ام كلثوم : آه هنا وآه هناك !

هذا الجزء من العالم ؟

نعم . هذا ما قالته الصحيفة الفرنسية .

ان المنطقة كلها من المحيط الى الخليج هى جزء واحد عندما تغنى أم كلثوم . سقطت الحواجز . ذابت الحدود . اتحدت الآذان داخل عشرة ملايين كيلو متر مربع . هذه هى النقطة . ان صوت أم كلثوم اقام اول سوق عربية مشتركة . سوق فى حال غير الحال ليلة تغنى ام كلثوم . كل الاذاعات تنقل صـــوتها . كل المستمعين يعطونها آذانهم . القديم والجديد ، الحكام والرعايا ، الوزير والفقير ، راكب الجمل وراكب الســيارة ساكن القصر وســـاكن الكوخ ، مشاهد التليفزيون ومستمع الراديو . ان غناء ام كلثوم موجود حيث توجد كل نسمة هواء فى هذه المنطقة . لقد تركت ام كلثوم بصماتهـا على الهواء الذى تتنفسه هذه الامة . الحياة غير الحياة عنـــدما تغنى ، العواطف غير العواطف ، الناس غير الناس .

« هبلت الناس ياأم كلثوم » .

هكذا قالت لها احدى سيدات المجتمعمعبرة عن اندفاع الجماهير لاستقبال أم كلثوم وهى تغنى فى تونس . هكذا قال ايضا الصحفى الدانمركى دينيس دوبرلى عندما شاهدها تغنى فى ليبيا . لم يكن يفهم ما تغنيه ، ولكنه كان يسمع .. كان يرى .

⊙✣⊙

« ألا ترى » ؟ هكذا يسألنى جارى فى حفل أم كلثوم بطنطا ارى ماذا ؟.. «ترى ثومة» ! طبعا ارى . طبعا اسمع . اسمعك وانت تهتف لها « تانى يا ثومة » ! وارى زوجتك وهى تنظر الى أم كلثوم بالنظارة المعظمة . صورة تجد مثلها دائما فى جميع حفلات أم كلثوم وارى الجميع فى حالة فرح . وعندما زغردت واحدة من الحاضرات انفجر الجميع ضاحكين ضحكة رجل واحد !

طبعا اسمع وارى هذا كله . ارى خلفى زوجا ، وامامى عاشقا اما انا فمنطقة محايدة ! انا محاط بساندويتش من الازواج والعشاق لقد جاء الزوج بزوجته فى يده وذكريات فى عقله ودمعة فى عينـــه ومنديل فى يده . زوج مخلص .

وارى العاشق بحبيبة فى ذراعه .



... « الله يخلل اياك » • كلمات قالتها فيروز لام كلثوم فى بيروت . ثم قبلة على الخدين ..

غناء أم كلثوم هو — بالنسبة للزوج — محاولة لتجميل الماضى ، وبالنسبة للعاشق محاولة لاكتشاف المستقبل .

فالحب عند الاول ماض انتهى بدمعة . وعند الثانى حاضر يتحرك بابتسامة .

لم يعد الماضى بالنسبة للاول ذكرى انتهت منذ سنة ، ولا منذ خمس دقائق . الماضى اصبح موجودا الان . الماضى أصبح حياه . الماضى تحكى عنه أم كلثوم . والله زمان .. يا حب !

والمستقبل بالنسبة للعاشق لم يعد شيئا يطويه الغيب . ولا هو شيء يحذره منه الاصدقاء . المستقبل اصبح موجودا الان . يتحرك على المسرح .. يتدلل فى الميكروفون . المستقبل اصبح هذا الذى تكشفه أم كلثوم بغنائها . المستقبل اصبح كل هذا الحب .. هذا الدلال .. هذا الألم .. هذا السحر .. هذه المتعة .

والزوج معه طفلة . طفلة فى الثانية عشرة على ما يبدو . انهـا تستمع ايضا الى اغنية الحب التى تغنيها ام كلثوم . تستمع بمتعة وشغف لقصة حب ترويها ام كلثوم . تستمع اليهـــا كما لو كانت تنظر من ثقب البـــاب لترى ماذا يفعل الاخرون عنـــدما يحبون ! اصبرى قليلا يا عزيزتى الصغيرة !

⊙❖⊙

اننا نقول فى المسرح ان هاملت ـ بطل شيكسبير ـ هو رمز للشك وان « عطيل » ـ بطل شيكسبير ايضا ـ هو رمز للغيرة .

ولقد اصبحت ام كلثوم رمـــزا للحب . اصبحت كذلك حتى بالنسبة للذين لم يجربوا الحب بعد . حتى بالنسبة للذين يعتبرون الحب ذنبا واثما . حتى هؤلاء يستمعون اليها كما لو كانوا يقومون برحلة الى عالم الذنوب دون أن يرتكبوا ذنبا . يسبحون فى البحر دون ان تبتل ملابسهم .

وعندما انتهت ام كلثوم من غنائها بدا الجمهور ـ بصـــعوبة ـ يغادر كراسيه . وبدات الســـاعات فى أيدى الجمهور تعـــود الى الدوران ، بعد ان توقفت عقاربها أربع ساعات حتى تستمتع

بدا الجمهور يعود الى منازله .. « انتهى الليـــل وسماه .. ونجومه .. وقمره .. وسهره » ، لم يعد هناك سوى « انت .. وانا » كلنا الان فى الحب سواء . كلنا كنا فى ليلة من الف ليلة .

من الان فصاعدا لن يكون الحب اثما . من الان فصاعدا لاخطيئة لا ذنب ، لا خوف ، لا انتظار ، لا فراق ، لا الم من الفراق .

لقد تحققت النهاية . اصبح لنا قلب جديد وعواطف جـديدة . عاد الجمهور الى منازله اثنين اثنين .

عاد بالخطوة البطيئة !





« كل منا يبحث فى السعادة عن الجـــزء الذى يهمـــه » ..

أم كلثوم

أم كلثوم .. فى البيت

أم كلثوم ست بيت فاشلة جدا !

انها مثلا لاتجيد الطبخ ! في الواقع انها لم تحاول مرة أن تطبخ ولا مرة ! . انها لو حاولت فالنتيجة معروفة مقدما !

لهذا فأن ام كلثوم لا تتدخل في أعمال منزلها . لديهـا من يقوم بذلك . .

ولكنها تتدخل في أشياء اخرى . تنسيق الغرف مثـلا . المكان الذى تعلق فيه اللوحات الفنية مثل آخر . لوحة نحاسية للعذراء تجدها في المدخل . لوحة زيتية للفنان صلاح طاهر في الصـالون . لوحة اخرى تمثل الفلاحة المصرية في الغرفة الاولى . . وهـكذا .

وزوج ام كلثوم له ذوقه في المنزل ايضا . ان مهنته ـ كطبيب ـ تحدد ملامح ذوقه : الدقة ، النظام ، الترتيب .

ولهذا ، فبينما يختلف الدكتور حسن الحفناوى عن زوجته أم كلثوم في مواعيد واسلوب العمل والعادات المنزلية . . فأنهما يتفقان في شيء آخر : الذوق الفنى .

والواقع ان اتفاق الذوق الفنى كان أول نقطة اتفق فيها الدكتور حسن الحفناوى وزوجته . هذا الاتفاق هو الذى أدى الى زواجهما في سنة ١٩٥٥ .

كان الدكتور حسن من ابرز اطباء الامراض الجلدية (الان استاذ في طب عين شمس) وعندما يصبح الطبيب موهوبا . . فغالبا ماتمتد موهبته الى دائرة الادب والفن . الدكتور **نجيب محفـوظ** طبيب امراض النساء مثـل لذلك . الدكتور **محمد كامل حسين** طبيب امراض العظام مثل ثان . الدكتور حسن الحفناوى مثـل ثالث .



الدكتور حسن الحفناوى مع زوجته ام كلثوم .. يشاهدان مباراة فى كرة القدم سنة ١٩٥٥

والدكتور حسن من « سميعة » ام كلثوم . هكذا بدات علاقتهما مستمع .. ومطربة .

ولكن ام كلثوم كانت تتردد عليه للعلاج فى سنة ١٩٥٤ علاقة عادية أخرى : طبيب ، ومريضة .

وتطورت هذه العلاقة العادية الى اتفاق عاطفى .. ثم الى الزواج وتم الزواج بعد عودة أم كلثوم من رحلتها الى امريكا للعلاج . تم فى سنة ١٩٥٥ .

وعندما تجلس ام كلثوم لن تسمع أسم حسن الحفناوى .

وعندما تجلس مع الدكتور حسن لن تسمع اسم أم كلثوم .

وجزء كبير من مجهود الدكتور الحفناوى يضيع فى الهرب من الصحفيين . قبل الزواج كان يحضر حفلاتها العامة بانتظام . بعد الزواج اكتشفته عدسات المصورين فتوقف عن الذهاب واكتفى بسماع زوجته فى البيت . وعندما بدات أم كلثوم تسافر الى الدول العربية للغناء كان الدكتور حسن يذهب الى المطار لتوديعها ومرة أخرى اكتشفته عدسات المصورين .. فتوقف عن الذهاب الى المطار ، واكتفى بتوديع زوجته فى البيت .

ان هذه التصرفات ــ وغيرها كثير ــ هى اصرار من الطرفين على الا تختلط حياتهما الخاصة بحياتهما العامة . اصرار يصل احيانا الى حد التزمت . انه تزمت لان شخصية الانسان واحدة فى الحالين أمام الناس ، وبعيدا عن الناس . انها شخصية واحدة .. أو من المفروض أن تكون واحدة . لهذا فان البحث فى الجانب الشخصى لحياة الفنان هو أمر مهم .. فى الحدود التى تؤدى الى استكمال بحث شخصيته العامة .

ولكن مثل هذا الراى لا يقنع ام كلثوم بسهولة . ولفترة طويلة جدا ــ مازالت مستمرة ــ لم يكن أى صحفى يستطيع أن يسأل أم كلثوم عن حياتها الخاصة . عيب . ان الصحفى يترك أم كلثوم فى النهاية ــ بأصبع على شفتيه ــ دون أن يناقش حياتها الخاصة .

ولكن ام كلثوم تطورت . يستطيع الصحفى الان ان يناقشها بدرجة محدودة فى حياتها الخاصة . ولكنه سيكتشف بعد لحظة أن امكلثوم قد حولت الحديث عن حياتها الى حديث عن فنها . فن !

ان هذه العزلة التى تقيمــــها ام كلثوم بين شخصيتها العـــامة وشخصيتها الخاصة لها مظاهر كثيرة فى حياتها نفسها :

ان الفيللا التى تسكنها ام كلثوم تقع على الجانب الغربى من نيل القــاهرة . فيللا وردية اللون .

والفيللا يحيطها سور دائرى . هذا السور هو حاجز بين امكلثوم التى يعرفها الناس ، وامكلثوم التى لايعرفها الناس. حاجز مرتفع، قبل هذا السور تحتفظ ام كلثوم لنفسها بسلطتها كفنانة . بعــد السور تحتفظ لنفسها بحريتها كزوجة ، كانسانة ، كفرد عادى . هنا ـ فى داخل هذه الفيللا ـ تريد ام كلثوم ان تستريح ، تستريح تستريح . انها تستريح كمقدمة لعمل غنائى جديد . فالغناء ايضا يحتاج الى مجهود . الغناء يحتاج الى استعداد . الغناء ... ... ماهذا ؟ لقد بدأنا بحياة ام كلثوم فانتهينا الى غنــاء ام كلثوم ! ألم اقل لك ان ام كلثوم تحول كل حديث عن حياتهــا الى حديث عن فنها ؟ ! انتباه .

◎❖◎

ان شخصية ام كلثوم كفنانة هى امتداد لشخصيتها كانسانة . انها غير عادية فى فنها . لهذا تصر على ان تكون عادية فى حياتها .. فى اسلوبها .. فى حديثها . هذا هو الانطباع الاول الذى تخرج به بعد اول دقيقة من الحديث مع ام كلثوم فى بيتها .

ان وجهها ـ فى بداية الحديث ـ يعطى لنفسه اجازة من الانفعال مستمعا الى ما تقوله انت . على هذا الوجه نظارة ســوداء . خلف النظارة تختفى عين ام كلثوم متنكرة . انالانطباع الدائم الذى تتركه عيناها هو قوة الارادة . عندما تصل هذه القوة الى حدها الاقصى تصبح عنادا . عندما تهبط الى حدها الادنى تصبح اصرارا .

واذا تكلمت ام كلثوم فانها تضغط دائما على حروف الـكلمات . يداها تســـاعدان فى هذا الضغط . تعبيرات وجهها تؤكد المعنى . وجه خال من الزوايا القاطعة ، معبأ بالعواطف الحادة .

ان الكلمات تخرج من فم ام كلثوم متلائمة مع جو الحديث . انها كلمات حارة غالبا باردة نادرا . كلمات مكيفة الهواء .

◎❖◎

ولكن ام كلثوم لاتندمج فى اى حديث من السطر الاول .

انها ـ فى البداية ـ تتكلم براسها ، لا بشفتيها . انها تستمع .. وتستمع . كلمة او كلمتين ، ثم تستمع مرة اخرى .

اقول ان ام كلثوم فى حياتها الخاصة منعزلة عن الناس ، هذه العـادة جعلتنى اقول لها مرة : انك قضيت ساعات وساعات على امتداد حياتك الفنية امام الـكاميرات والميكروفونات .. تجيبين وتسألين . ان هذا كله يشير الى انك تحبين النـاس . أو تهتمين بسماع آرائهم على الاقل . ومع ذلك فأنا أعرف انك فى حيـاتك الخاصة نادرا ما تختلطين بالناس . نادرا ما تلغى المسافة بينـك وبينهم . ألا ترين أن هذا تناقض ؟

وكان رد أم كلثوم ببساطة : هـذا صحيح . اننى اهتم بمتابعة آراء المجتمع فيما اقدمه . ولكننى مع ذلك لست نجمـة مجتمع . لست كذلك بمعنى اننى لا افضـل أن يرانى النـاس فى كل ركن يستديرون اليه . لا افضـل ان أكون من الذين يراهم النـاس موجودين فى كل سهرة .. ظاهرين فى كل مناسـبة . على ذلك . فأنا لست من الذين يزورون كثـيرا أو يزارون كثـيرا . لست من الذين يعيشون حياة صاخبة . أنا حريصة فقط على أن أقوم بدورى الفنى . بعدها أنسحب فورا متراجعة الى حياتى الخاصة . تعرف ليه ؟ لان الفنان اما أن يبنى نفسه ، أو يدمر نفسه. وانا حريصة ـ حتى الان ـ على ان أبنى نفسى . وهذا فى الواقع ليس تناقضـا كما قد يبدو . ان عملى يفرض على بعض الاعباء التى جعلتنى أختار هذا الاسلوب فى الحياة .

وعدت أسأل ام كلثوم : ما الذى جعلك تصبحين فنانة ؟

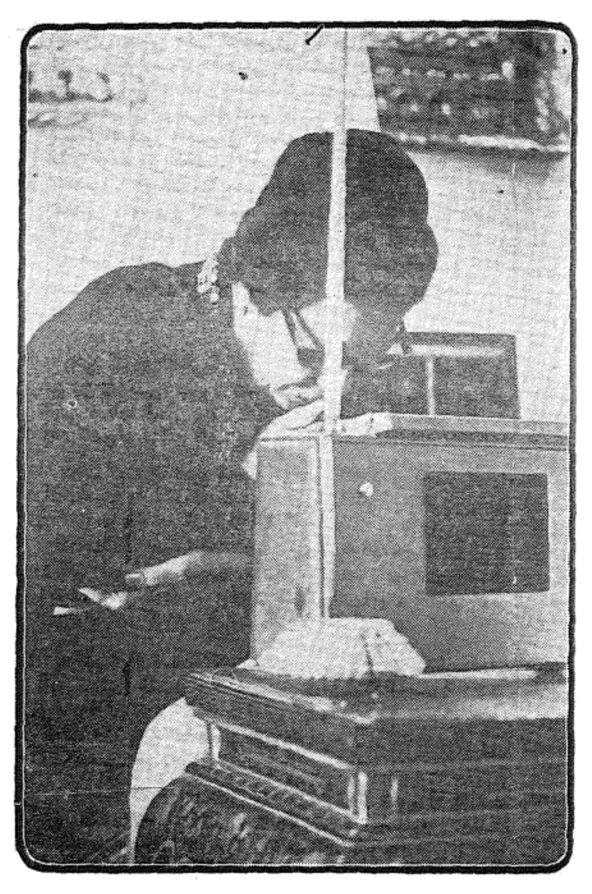
وردت بسرعة : « لم اكن مطلقـا اى شىء آخـر . ولا اريد ان أكون اى شىء آخر . »

هنا رفضت ان اقتنع برد أم كلثوم !

رفضت لاننى لا استطيع ان اقول آمين هنا بسهولة .. حتى لأم كلثوم !

قلت لهـا : انك تحـدثيننى كما لو كان عملك هو كل شىء فى حياتك . ومع ذلك فأنا اعلم أن هذا غير صحيح . أعلم مثلا انك تعطين حيـاتك الزوجية اهتماما يسـاوى على الاقل اهتمامك بعملك . اليس كذلك ؟

وضحكت ام كلثوم وهى ترد : طبعا.. هذا شىء ، وهذا شىء . ما دمت زوجة فلابد ان أقوم بواجبـاتى كزوجة . لابد الا يكون



وحدها .. مع اذاعة القاهر
صورة خاصة فى المنزل ..

انشغالى بعملى عذرا لتقصيرى فى حياتى الزوجية . ومع ذلك ؛ فحتى هنا ليست هذه هى القاعدة دائما . هنـاك استثناءات احيانا . استثناءات زوجية ، ليست مشاكل زوجية. ان مايجعلها كذلك هو ان زوجى الدكتور حسن وانا نقدر اعباء بعضنا . احيانا ينهمك الدكتور حسن فى ابحاثه الطبية ويسهر معها وينشغل بها. أنا لا الومه على ذلك . نحن اذن لا نتبادل المشاكل . نحن نتبادل التقدير . ان كلا منا يعلم ان المشاكل الزوجية سببها غالبا سوء التقدير . ما دام لا يوجد سوء تقدير ، فلا توجد مشاكل . على اننى لا اقول ان اختفاء سوء التقدير هو الاساس الوحيد للحياة الزوجية . لا بد ايضا من التقدير . وفى هذه الحدود فاننى وزوجى نبنى حياتنا على أساس من التقدير المستمر . تقدير متبادل .

◎❖◎

ومن الامور المتكررة كل يوم جمعة ان تخرج ام كلثوم فى جولة مع زوجها سيرا على الاقدام فى شارع النيل . ان أم كلثوم تحب المشى . انها تسير يوميا لمدة ساعة تقريبا على النيل « .. ما عدا أيام الصيف ، لان الجو يبقى حر » .

وهى تصلى. ومن احسن أوقاتها تلك التى تجلس فيها ممدودة القامة حافية القدمين ، مرددة آيات القرآن الكريم . ان الصلاة والمشى جزءان من التقاليد الثابتة فى حياة أم كلثوم . مواعيد النوم والاستيقاظ ايضا ثابتة غالبا . فى اليوم العادى لا تتأخر فى النوم. بالكثير الساعة الحادية عشرة مساء . ثم تستيقظ فى الثامنة صباحا . لا افطار . مجرد فنجال شاى . الغداء أيضا حسب الظروف أما الوجبة الرئيسية فهى العشاء .

ولكن ، عندما تكون لديها بروفات او حفل عام .. يتغير الجدول ! الغداء يصبح هو الوجبة الرئيسية : لحوم طيور وخضراوات . « الشعرية » من أحب الاطعمة عند أم كلثوم . بعد الغداء تشرب دائما عصير فواكه طبيعى . عصير معد فى المنزل . غالبا عصير جوافه .

وفى ليلة الغناء لاتتناول أية اطعمة فى المساء . لا عشاء . ولكنها قبل الغناء لابد ان تشرب فنجال قهوة .. بارد . عادة . بعد الغناء ساندويتش ، ولا نوم حتى الصباح .

وحتى سنوات قليلة مضت كانت ام كلثوم تقوم دائما بزيارة

مسجد الحسين ومسجد السيدة زينب قبل ان تغنى . اما الآن فهى تكتفى بقراءة آيات من القرآن الكريم . انها تتمتم بآيات القرآن فى كل خطوة .. حتى عندما تسير فى الشارع او تركب سيارة . لقد ركبت معى السيارة مرة فى طريقها من منزلها الى مبنى التليفزيون . وفى اول خمس دقائق اكتشفت ان عقلها ليس معى . انها تردد آيات القرآن سرا . بعد لحظات كانت مستعدة للكلام . ساعتها ابطأت السيارة وبدات اجرى معها حوارا بالخطوة السريعة .

هكذا اجابت ام كلثوم !

ـ **ما هى اكبر خطيئة** : ان ترى الخطأ ولا تنبه اليه .

ـ **احسن صديق** : شخص يشاركك الملك .

ـ **احسن مكان** : حيث تنجح .

ـ **اقصر طريق للنجاح** : العمل .

ـ **احسن عمل** : الذى تحبه .

ـ **أكبر راحة** : ان تؤدى عملك جيدا .

ـ **أكبر خطأ** : اليأس . انه موت مبكر !

ـ **أسهل شىء** : ان تجد خطأ لشخص آخر .

ـ **أكبر عيب** : الغرور .

ـ **احسن مدرس** : شخص يرفض ان يجاملك .

ـ **احقر شعور** : الحسد .

ـ **أكبر لغز** : الحياة .

ـ **اعظم شىء فى العالم** : الحب .

ـ **أكبر مقلب** : شخص لا يفهم ما تريد .

ـ **أكبر عدو** : اسرائيل .

ـ **اعظم مهمة** : أن نفتدى بلدنا بحياتنا .

ـ **أكبر امل** : ان تعود فلسطين .

ـ **اشرف واجب : الدفاع عن الحق .**

ـ **اسمى فكرة : الله .**

⊙❖⊙

ان أم كلثوم تتفاءل بقــراءة القرآن الكريم . وتتفاءل بحمـل مصحف صغير فى حقيبة يدها أينما تسير . ولكنها تتشــاءم اذا نسيت أن تأخذ معها عند سفرها وسادة خاصة تنام عليها . فى الواقع انها تكره اصلا ان تتشاءم . لان « .. التشاؤم ، يتحول فيما بعد الى شؤم حقيقى » .

والسعادة بالنسبة لام كلثوم « .. مسألة نسبية. فما يسعدنى قد لا يسعدك . وما يسعدك قد لا يسعد شخصا ثالثا . ان كلا منا يبحث فى السعادة عن الجزء الذى يهمه » .

اما المرأة فى رايها فهى « .. الاساس فى كل شىء . انها البداية نحو خلق أسرة متماسكة . وكلما كانت المرأة مثقفة زادت قدرتها على فهم زوجها ودفعه الى الامام . وما تقدمه بلدنا للمرأة اليوم ســوف تسترده قيمة وثقــافة وكفاءة من الجيل الجديد بعــد عشرين سنة » .

بعد هذه الجملة فان راى أم كلثوم فى المرأة يزيد تفصيلا ..

من رايها مثلا ..

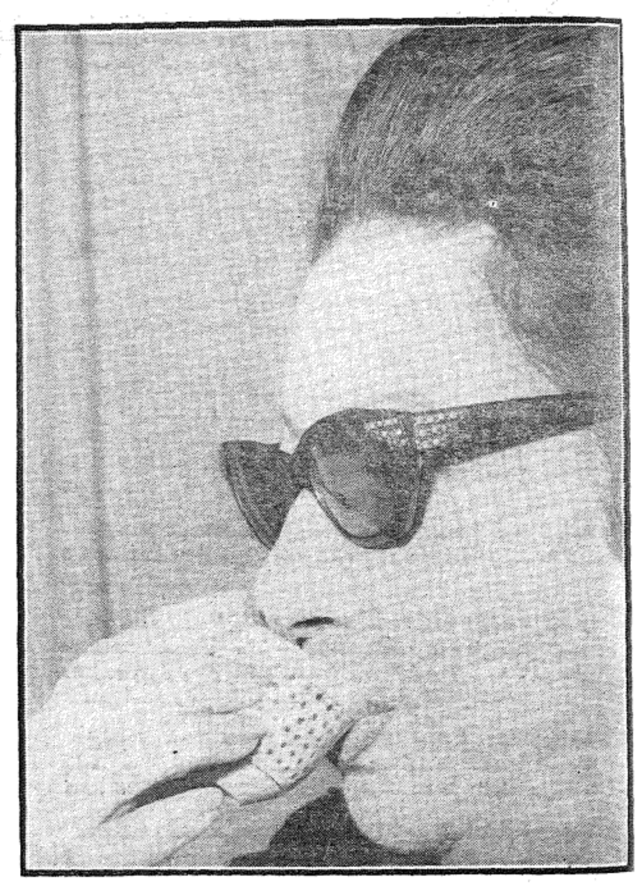
« .. **ان المرأة السودانية** انيقة بحشمة ، محترمة باعجـــاب ، وهى بالفعل جديرة بالاحترام الذى يبديه لها الرجل السودانى ..

« .. **أما المرأة فى المغرب وتونس** فانها جميلة جدا .. خصوصا بزيها الوطنى .. جميلة ومثقفة ..

« .. **والمرأة اللبنانية** هى اسرع امرأة عربية الى الموضة . ان الموضة تبدأ فى بيروت دائما ، ثم تنتشر بعد ذلك ..

« **والمرأة الكويتية** تحاول التوفيق بين حشمة مجتمعها وموضة بيروت . انها فى منتصف المســافة بين المرأة الســـودانية والمرأة اللبنانية ..

« .. وعلى اى حال ، فان المرأة العربية بصــفة عامة أصبحت تهتم بالذوق الفنى اكثر من اى وقت مضى .. والذوق فى حد ذاته جزء من الثقافة » ..



فنجان قهوة بارد .. لا بد أن تشربه ام كلثوم قبل الغناء ...

والواقع ان ام كلثوم نفسها حريصة على الثقافة . انها تتحدث الفرنسية بطلاقة ، الى جانب قليل من الانجليزية . وام كلثوم تعزف على العود . وهى تقرا كثيرا . تقرا الشعر . انك لاتستطيع أن ترمى بحجر فى بيت أم كلثوم دون ان تصيب ديوانا من الشعر .. أو حتى بيتا !

ان أم كلثوم تحتفظ بدواوين المتنبى وابو نواس وابن الفارض ومهيار الديلمى . تحتفظ بكتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى . تحتفظ أيضا بمختارات محمود سامى البارودى وأحمد شوقى وحافظ ابراهيم . من قراءاتها ايضا كتاب « كليلة ودمنة » وكتاب « حديث عيسى ابن هشام » للمويلحى .

ومن الكتب التى تحب أن تقراها وتعيد قراءتها كتاب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل . وكتاب « الايام » للدكتور طه حسين .

بعد الكتب كانت أم كلثوم تهوى مشاهدة الافلام السينمائية وبعض المسرحيات ، خصوصا مسرحيات يوسف وهبى . ولكنها توقفت عن ذلك منذ زمن طويل . لقد حل الراديو والتليفزيون محل السينما والمسرح . فى الراديو تحب سماع الموسيقى والبرامج الدينية .

وبالاضافة الى ذلك فلديها عدد ضخم من الاسطوانات الموسيقية انها تحب سماع الموسيقى الهندية والتركية ، بالاضافة الى الموسيقى الشرقية .

وام كلثوم سبق ان حاولت التلحين . ولكنها فشلت مرتين . لقد لحنت لنفسها فى مطلع حياتها الفنية طقطوقة (على عينى الهجر دامنى) ومونولوج (يا نسيم الفجر ريان الندى) . وهما من نظم الشاعر احمد رامى .. ومسجلتان فعلا على اسطوانات .

فى الواقع انها لم تشجع نفسها على الاستمرار فى هذا الاتجاه ، بالرغم من أن عددا من أصدقائها شجعها على ذلك . السبب « .. اننى ارى ان الانسان لابد أن يرغم نفسه على التخصص » .

وايمانها بالتخصص هو الذى يجعلها تؤمن بأن التليفزيون يجب ان يكون لديه فنانوه المتخصصون فيه . انها تقول « .. كنت أحب

عدداً من الفنانين عندما كنت أسمعهم فى الراديو . ولكننى عندما بدأت أراهم فى التليفزيون قل اعجابى بهم » .

●❖●

وأم كلثوم بعد هذا كله تحب ان تسمع نفسها . انها تقول لنفسها « آه » ! وهى عندما تفعل ذلك تكون بمفردها . أم كلثوم وحدها . مع أم كلثوم . وهى تقول « .. اننى اسوا مستمع لنفسى ! فحينما أسمع تسجيلاتى .. اسمعها باذن أخرى . اذن الناقد القاسى . الناقد الذى يعرف ان كل شىء كان يمكن أن يكون احسن » وعملى كان يمكن ان يكون أفضل. بل اننى لا أرضى عن غنائى سوى مرتين فى السنة ، هما اللتان أحس فيهما فعلا اننى تفوقت على نفسى » .

وهى تقول ايضا : « .. اننى حريصة جدا على أن تكون حياتى مليئة باكبر قدر من العمل ، واكبر قدر من النظام . ان العمل والنظام لم يساعدانى فنيا فقط ، وانما ساعدانى صحيا ايضا بدرجة متساوية . اننى مثلا مدينة لفنى بصحتى . ان النوم المبكر والسهر نادرا والقراءة المستمرة والاستماع الدائم .. ليست مجرد عادات اجتماعية أو ثقافية . انها ايضا عادات فنية . وبالاضافة الى ذلك . فان الغناء بالنسبة لى هو متنفس لاشياء كثيرة . متنفس لطاقات كثيرة لا اجد وسيلة أخرى للتعبير عنها .

وهنا خطر لى فجأة ان اسال : أم كلثوم .. لماذا تغنين ؟

ـ ايه .. ؟

ـ لماذا تغنين ؟

ـ آه .. لاننى اريد ان اكتشف فى نفسى شيئا اريد التعبير عنه .

ـ وهل حققت لك اغانيك هذا التوقع ؟

ـ لا . ليس بعد .

ـ الا يمكن ان يكون غناؤك من اجل النقود .. او من اجل الشهرة مثلا ؟

ـ ممكن .. ولكن هذا ليس صحيحا الان ..

ـ ليه ؟

ـ اولا لاننى لم اعد فى حاجة الى النقود .. حاجتى اليها ايام

طفولتى مثلا . نفس الاجابة بالنسبة للشهرة . كل المسألة اننى اغنى لاننى احس احيانا بانه ربما تكون لدى فكرة اريد ان انقلها او عاطفة اريد ان اعبر عنها ، او هواية اريد ان امارسها . تأتى بعد هذا كله نقطة هامة جدا : ان الانسان لابد ان يعمل ما دام قادرا على ذلك . لابد ان يعمــــل .. لان قيمته هى عمله . ليست ثروته .. ليست شهرته . وانا لا اتصور يوما من حياتى يمر من غير عمــل . اننى حريصة على أن تكون حياتى اطارا لعملى . حياتى هى الاطــار .. والعمل شيء مكمل له .. شيء مجمل له .

ــ بمناسبة العمل .. هل يتطلب عملك نفقـــات كثيرة فى بعض النواحى .. الملابس مثلا ؟

ــ لا . ليسدائما . وليس كثيرا . آه .. تصور ، انه نشر عنى خبر مرة يقول ان الفستان الســـواريه الذى ارتديه يتكلف ..٤ جنيه . معقول ؟ لا ادرى من اين جاءوا بهذا الرقم . ان فساتينى تتكلف اقل من ذلك بكثير . أقل جدا .

ــ وافرضى انه يتكلف ..٤ جنيه .. يجرى ايه ؟

ــ لا شيء . الا ان المهم فى المسألة ليست تكاليف الفســتان .. انما ذوقه . هكذا ارى . وبالنسبة لى فاننى لا انقل الموضـــة ، مع اننى أتابعها . اتابعها لكى آخذ منها ما يناســـبنى . انا لا اريد ان ارتدى فستانا يلفت نظر النــاس .. والا تبقى معــرض .. موش موضة ! ان اهم اربع صفات فى الفســتان الذى ارتديه هى : أولا ــ ان يكون حشمة . ثانيا ــ الا يكون متخلفـا عن خطوط الموضـــة السائدة . ثالثا ــ ان يكون هناك ذوق فى الوانه .. بمعنى ان تكون الالوان منسجمة فى تركيبها مع بعضها . اما الصفة الاخيرة فهى أن يكون الفستان بسيطا . ان البســـاطة هى دائما المشكلة .. وهى الحل » !

⊙⁘⊙

وعندما انتهت أم كلثوم من كلماتها بدات افكر . انه سوء تفاهم هذا ســـوء تفاهم منتشر بين أم كلثوم من ناحيـــة ، وبين جزء من جمهورها من ناحية اخرى . نتيجة غير مقصودة لطبيعة العــلاقة بين الاثنين . المشكلة ــ فى رايى ــ هى أن الجمهور « يعبد » امكلثوم وعندما « نعبد » احدا فاننا نضعه على مسافة بعيدة منا . اننـــا نحيطه بهالة تختلط فيها حقائق قليلة بخيال كثير . انه دائما يلبس



منذ سنوات طويلة مضت .. اصبحت صور ام كلثوم مع الاطفال - مع اى طفل - هى
احب صورة لها فى البومها الخاص . سر آخر من اسرار حياتها الشخصية ..

« اغلى » ويتكلم « أحسن » ويتصرف بلباقة « أكثر » . انه معفى من الانفعال ومستثنى من الخطأ ..

وهذا هو وجه الخطأ ! !

لقد سألتنى فتاة مرة : هل تعتقد ان ام كلثوم مثل اى واحدة فينا .. تحب وتكره ، تصيب وتخطىء . تفرح وتبكى . تتفاءل وتتشاءم ؟

طبعا ام كلثوم هى هذا كله ! ان صورة ام كلثوم لن تكبر بمزيد من الخيال .. بل بمزيد من الحقائق . ام كلثوم فى حياتها العادية ليست شخصا مختلفا عن كل الاشخاص . انها انسانة عادية جدا . ربما كان الخلاف فى الدرجة ، ولكنه ليس خلافا فى النوع . خلاف يرجع الى ان عواطف الفنان دائما عواطف سكوب . عواطف مركزة وعميقة .

ام كلثوم تسعد وتتألم .

طبعا هى تسعد عندما تنجح فى عملها . ولكنها تتألم جدا عندما ترى مريضا امامها ولا تستطيع أن تفعل له شيئا . كان لديها مرة « شغالة » تعمل فى منزلها ، ثم اصيبت ساقها بكسر . وعلى الفور الغت كل ارتباطاتها السابقة ونزلت بالفتاة الى مستشفى الهلال بالقاهرة . وبعد ان اجرى المستشفى اللازم للفتاة استعدت ام كلثوم للعودة الى منزلها تاركة الفتاة فى المستشفى بناء على طلب الاطباء . فى هذه اللحظة بكت الطفلة . « .. قالت لى : لازم أرجع معاكى . ولم استطع ان أحتمل دموع الطفلة. عدت بها معى وطلبت من الطبيب أن يعالجها فى المنزل » .

ام كلثوم تفرح وتبكى . لقد بكت مرة بعد نجاح حفلتها بمدينة باريس سنة ١٩٦٨ . وقتها قالت « مع كل هذا النجاح الذى حققه الحفل ، الا اننى كنت اتمنى ان امثل بلدى هنا وهى فى ظروف افضل مما اصبحت فيه بعد النكسة » .

ام كلثوم تعرف الازمات النفسية ..

ان اعنف ازمة مرت بها فى السنوات الاخيرة كانت قبل وبعد علاجها من تضخم الغدة الدرقية. لقد ظلت الغدة تؤلمها لمدة ثمانى سنوات ، الامر الذى هددها بالتوقف تماما عن الغناء . وعندما ذهبت الى امريكا لعلاج الغدة سنة ١٩٥٤ توفى أخوها خالد وهى

هناك . يومها حرص الاطباء على عدم ابلاغها بالخبر ، بعد ان علموا مدى حبها لخالد ..

وعادت ام كلثوم الى القاهرة فعلا دون ان تعلم بالخبر . انها لم تعلم الا بعد ان وصلت الى المنزل . خبر سبب لها اقصى درجات الالم . فى الواقع ان وفاة اخيها سببت لها أزمة نفسية لازمتها مدة طويلة .. خلال هذه الازمة اعتزلت ام كلثوم الحياة تقريبا . كانت تحبس نفسها فى حجرة صغيرة بالمنزل دون أن تتكلم الى أحد .. او تطيق ان يتكلم اليها احد ..

وبسبب هذه الازمة تدخل الاطباء ..

قال الاطباء انه لا املَ .. « .. لا املَ فى ان تعود ام كلثوم الى حالتها النفسية الاولى الا اذا عادت الى الفناء من جديد » .

وام كلثوم تكره ...

انها تكره ان يخدعها احـــد . انها تروى مثلا هذه القصـــة : « انتهيت من الفناء فى احدى الحفلات .. ثم جاء الى واحـــد من المعجبين الذين اعتز بهم .

قال لى : ايه ده .. انت كنت مش معقولة الليلة دى !

سالته : يعنى ايه ؟

قال : يعنى عملتى حاجات ماحصلتش قبل كده !

سالته : يعنى ايه ؟

قال : يعنى كنت روعة . كنت عظيمة . كنت مبدعة .

ولم افعل شيئا غير اننى شتمته !

لقـد فعلت ذلك لاننى فى تلك الليلة بالذات لم افن كما يجب أن اغنى . كانت اعصابى متوترة وحالتى النفسية سيئة ..

فلم استطع حتى ان اكون فى مستواى العادى . ولهذا كرهت من هذا المستمع نفاقه . واحـدة من اثنين : اما انه لا يفهم ، وانا لا احب ان يسمعنى من لا يفهم . واما انه يفهم ولكنه ينـافقنى ، وانا اكره من ينافقنى ، لانه لن ينبهنى الى عيوبى » !

وأم كلثوم تضحك !

ان خفة دمها هنا قد تتركز فى موقف ، او صدفة ، او قفشة .

دخل اليها فى البيت مرة زميل صحفى . زميل قصير القامة . وصافحته أم كلثوم واقفة وهى تقول له : اظن انت الواحد يقعد لك

وكان الموسيقار محمد القصبجى مشهورا عنه بأنه يصبغ شعر راسه وسوالفه حتى يبدو اسود اللون دائما . ولكن ام كلثوم قالت له فى البيت مرة : كفاية باه يامحمد .. دى بقت ختامة !

وفى مرة اخرى كان محمد القصبجى مسافرا معها فى القطار . ثم تذكر فجأة انه نسى ان يصبغ شاربه . فأخرج قلما اسود من جيبه وبدأ يصبغ شاربه . حينئذ اشارت اليه أم كلثوم ضاحكة شوفوا الرجل رجع شاب .. « بجرة قلم » ! !

وفى مرة علقت لى على مقال نشر عنها فى مجلة اسبوعية . مقال كتب بلغة صعبة للغاية . وعندما قالت لى ام كلثوم ان المقال لم يعجبها سألتها عن السبب فقالت : لان كل كلمة فيه لابسة عمة ! !

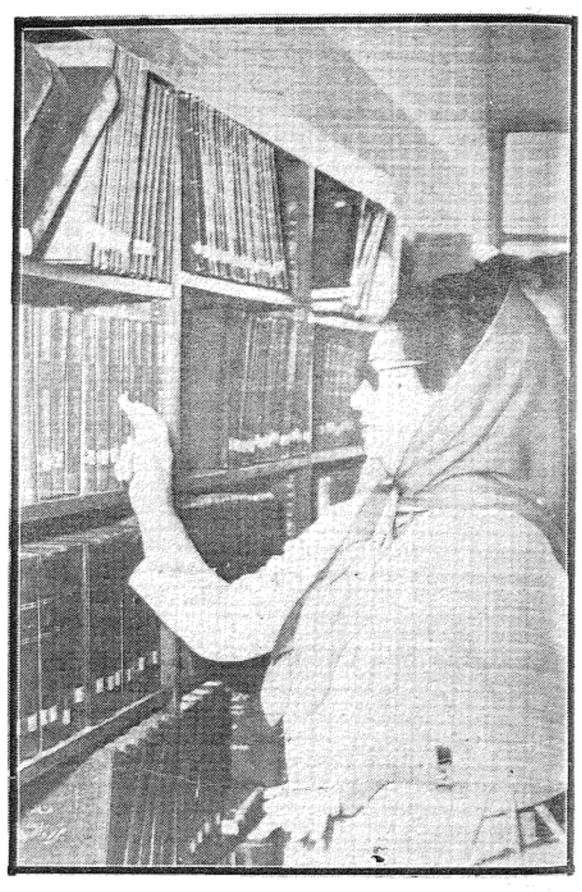
⊙✣⊙

وأم كلثوم تحب ..

ولكن حبها من النوع التفصيلى ، المحدد ، انها تحب بيت شعر ، او صورة ، او موقفا ، أو نكتة .. بالذات ، وبالتحديد . وعندما تتذكر شيئا فانها تتذكر هذا البيت ، هذا الموقف ، هذه الصورة ، هذا الطفل .. الطفل الذى يملأ بيت أم كلثوم بشقاوته هو عادل .

وعن عادل تقول ام كلثوم : « ان عادل هو اشقى اطفال الاسرة كلها . ومع ذلك فمنذ اليوم الذى ولدته فيه بنت عمى وأنا احبه جدا . لقد جاءت به بنت عمى منذ اربع سنوات ونصف سنة وهو رضيع لكى ابحث لها عن طبيب يعالجه من لين العظام . ثم اقتضى علاجه أن يبقى فى هذا المنزل . بعدها طلبت من امه ان تقيم معه هنا انه الان فى مدرسة الحضانة ، وعمره لا يزيد على خمس سنوات ، ومع ذلك فانه فى غاية الذكاء وسرعة البديهة .. احيانا اتصور انه يملك عقل رجل فى جسم طفل » .

وحتى الصورة التى تحبها ام كلثوم فى البومها هى صورة طفلة



الاغانى .. للاصفهانى .. واحد من الكتب التى تحتفظ بها ام كلثوم فى مكتبتها الخاصة ..

تقبلها اثناء زيارتها للسودان . فى الواقع انك سوف تجد مثل هذه الصورة منشورة بعد كل حفل لام كلثوم . صـــورة طفلة صغيرة تقبلها ام كلثوم .

اكبر طفلة فى منزل ام كلثوم اسمها نعمات . انها بنت ابن اخ ام كلثوم لقد انفصل ابواها بالطلاق منذ سنوات . ثم تزوجت والدتها وتزوج ابوها . بقيت الفتاة الصغيرة ـ وعمرها تسع سنوات . اخذتهـــا أم كلثوم لتربيها هى فى منزلها . ولم تكن الفتاة قد دخلت مدرسة ولا حتى ذهبت الى كتاب . وعنــدما بدات نعمات تستقر فى منزل ام كلثوم احضرت لها مدرسا خصوصيا استمر يعلمها ثمانية شهور انها فتاة ذكية . لذلك نجحت بتفوق عندما ادت الامتحان فى مقرر ثلاث سنوات دفعة واحدة . انها الآن فى السنة الثـانية بالمرحلة الاعدادية ، وهى باستمرار تتفوق فى مدرستها . بالذات فى اللغتين العربية والانجليزية .

ان أم كلثوم تحب نعمات ، مثلما احبت عادل من قبلُ .

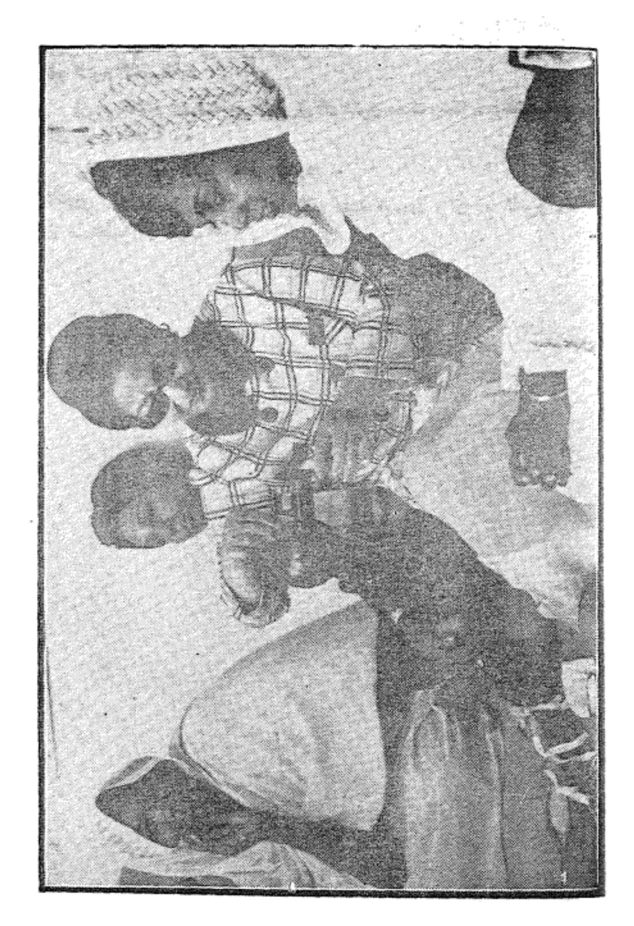
ولقد سالت ام كلثوم مرة : هل تعتقدين ان الزوج والزوجة هما الطرفان الوحيدان فى الاسرة ؟

قالت ام كلثوم : الزوج والزوجة هما الطرفان الاساســيان فى الحياة العائلية ، ولكنهما ليسا الطرفين الوحيدين . طبعا هنـــاك أطراف اخرى ، منها وجود الاطفال مثلا ، ولعل هذا ما تقصده ..

وقلت بسرعة : صحيح صحيح . هذا بالضبط ما أقصــده . ولعلنى استطيع هنا ان اسالك فى موضوعات لم يسبق لك التحدث فيها مطلقا من قبل . مثلا : الم يؤد عدم انجابك لاطفال الى اضعاف حياتك الزوجية ؟

وام كلثوم ترد . ليست الفنانة ، وانما ام كلثوم الانسانة تقولُ « ابدا ، ابدا ، أبدا . بل ان هذا السبب نفسه جعل مشاعرى نحو الاطفال وحبى لهم يكبر ويتضـــاعف . ان اسرتى كلها تعلم مدى شعورى نحو اطفالهم وتعلقى بهم وتعلقهم بى . ان أهم شىء اشتريته من السودان مثلا فى زيارتى الاخيرة كان نسناسا صغيرا . نسناسا حقيقيا . لقد فرح به الاطفال جـدا ، وفرحت انا لفرحتهم . لانه لايوجد فى الدنيا كلها ما يساوى ابتســامة طفل وسعادة طفل . ولا يوجد اشقى ولا اسوأ من تعاسة طفل .. ودمعة طفل » .

***



عند هذه الكلمة من أم كلثوم فقد قلمى النطق! .

فى الواقع أنا اعلم كم هى صادقة فى هذه الكلمات . ومن يدرى لعل هذه المشاعر هى تعويض عن عاطفة أساسية اختفت من حياة ام كلثوم الانسانة .

ان ام كلثوم فشلت من قبل فى ان تكون ست بيت . وفشلت فى ان تكون ملحنة ..

ولكن فشلها الكبير حكم قدرى .

لقد فشلت فى ابسط ما يدل عليه اسمها : ان ام كلثوم .. لا تستطيع ان تكون اما !

□ □ □



« انهـــا المطربة الموهـــوبة
التى اثبتت أن الغنــــــاء
فن رؤوس وقـــلوب » ..

عباس محمود العقاد

أم كلثوم
بين
أحمد رامي والسنباطي وعبد الوهاب!

ليس صحيحا ان أغنية « انت عمرى » كانت اول لقاء فنى بين ام كلثوم وعبد الوهاب !

لقد اذيعت الاغنية فى ٦ مارس سنة ١٩٦٤ .

ولكن ام كلثوم وعبدالوهاب غنيا معا قبل هذه الاغنية بـ ٣٧سنة

بل ان محمد عبد الوهاب لحن اغنية اخـــرى ، غنتها ام كلثوم قبل « انت عمرى » بعشرين سنة !

لقد غنيا معا فى سنة ١٩٢٧ .

كان اول لقاء بين المطربة « ذائعـــة الصيت » ام كلثوم ، وبين المطرب « الشاب » محمد عبد الوهاب .

تم اللقـــاء فى منزل والد المهندس ابو بكر خيرت . ان صاحب المنزل كان من هواة الموسيقى والغنـــــاء . وكان بيته مقرا دائما لندوات أهل الفن وسهراتهم .

وفى احدى تلك السهرات تصـــادف وجـود ام كلثوم ومحمد عبد الوهاب .

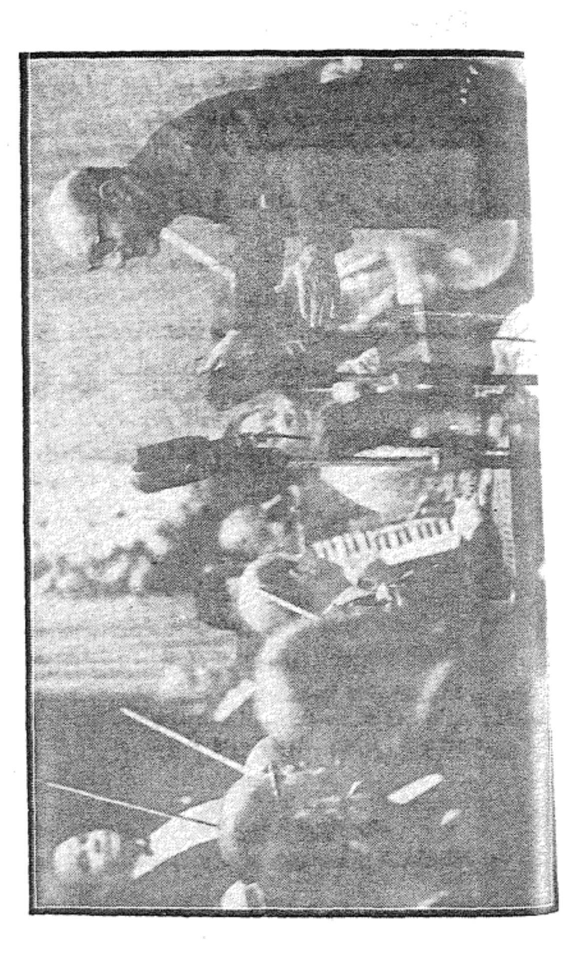
و .. غنيا معا !

غنيا مونولوجا ـ مشهورا وقتها ـ من أوبريت «العشرة الطيبة» التى وضع الحانها سيد درويش . وكان المونولوج من كلمات بديع خيرى . تقول الكلمات :

على قد الليـــــل مايطول ..

مسـترضى بسهرى ونوحى ..

وفى حبـــك ياللى ..



من اول ما اشوفك ..
ترد روحى ...
والمونولوج عبارة عن مناجاة غنائية بين فتى وفتاة .

وقد تبادلت امكلثوم الغناء فيه مع عبدالوهاب . وسمعها ليلتها عدد كبير من اهل الفن ، ومن بينهم حسن أنور وكيل معهدالموسيقى وقتها ، ومصطفى رضا .

وحاولالحاضرون تحويل هذهالمحاولة الى عمل مشترك يستمع اليه الجمهور ...

ولكن المحاولة لم تنجح .

◎❖◎

وفى سنة ١٩٤٤ غنت أم كلثوم من تلحين عبد الوهاب !

لقد تمت هـــذه المحاولة فى سهرة ضمت توفيق الحكيم وفكرى اباظة والدكتور عبدالوهاب مورو وكاملالشناى والممثلة ـ وقتها ـ كاميليا ـ ثم ... أم كلثوم وعبد الوهاب .

وفى الســـهرة سالت أم كلثوم كامل الشناوى : الم تحرك فيك « كاميليا » موهبة الشعر ؟

ورد كامل الشناوى بقصيدة يقول فيها :

لست أقوى على هواك ومالى

أمل فيك .. فارفقى بخيالى

ان بعض الجمال يذهل قلبى

عن ضلوعى .. فكيف كل الجمال

ليلتها قالت أم كلثـــوم أنها مستعدة لغناء القصيدة لو لحنها عبد الوهاب .. وبالفعل .. أمســـك عبد الوهاب بالعود ، ولحن الكلمات .. التى ظلت أم كلثوم تغنيها ـ بناء على طلب الحاضرين ـ حتى الصباح !

◎❖◎

مرة اخرى لم تخرج هذه المحاولة الى الضوء .

ولمتتم أيضا محاولات اخرى بذلها عدد مناصدقاء الطرفين من

الصحفيين ، على ان تصريحاتهما الصحفيــة كانت تفيض بمشاعر المجاملة والتمنيات الطيبة .

كانت ام كلثــوم تقول : ان عبد الوهاب يكتفى بان يلحن لى على صفحات الجرائد ..

وكان عبدالوهاب يقول : انني اعتقد ان ام كلثوم لاتريد ان الحن لها .

لم يكن ايهما يثق فى الآخر بما يكفى بعد لانتاج عمل غنائى مشترك .
لمــاذا .. ؟

فى الواقع توجد تفسيرات كثيرة لذلك . ولكن التفسير الوحيد المقبول هو تفسير بسيط . هذا هو : ان عبدالوهاب ـ فى مرحلته الفنية الاولى ـ كان فى الدرجة الاولى مطرب .. وفى الدرجة الثانية ملحن . كان عبدالوهاب ملحنا خصوصيا لعبد الوهاب . انه بالطبع ـ سيحتجز احسن الحانه لنفسه !

وفى نفس الوقت كانت أم كلثوم مطربة . هى تغنى للجمهور ، وعبد الوهاب يغنى للجمهــور . هى تقف على المسرح ، وهو ايضا يقف على المسرح .. الخ .

وعلى ذلك فمن المتصور أن يوجد بينهما شعور بالمنافسة . احيانا منافسة حادة . وهى فى كثير من الاحيان منافسة يغنيها وينميها كثير من المحيطين بالطرفين ..

◎❖◎

ثم تغير الحال ..

تراجعت مقدرة عبد الوهاب الاولى كمطرب الى الدرجة الثانية ، وحلت محلها مقــدرته كملحن . مرحلة أخرى دخلهــا عبد الوهاب والملحن ـ اى ملحن ـ عندما تصبح أصوات الآخرين هى وسيلته الوحيدة للوصول الى الجماهير .. فانه يبدأ فى التفكير بطريقة مختلفة

ان الشعور بالمنافسة لن يمنعه الآن ، ولكن الشعور بالتكامل هو الذى يدفعه .

وبالنسبة لأى ملحن ـ فما بالك بعبد الوهاب ؟ ـ لايوجد صوت أكثر اغراء من صوت ام كلثوم ، لاتوجد وسيلة أخرى أكثر ضمانا للوصول الى قلوب الجماهير ..

من هنا بدأت طبيعــة العلاقة الفنية بين ام كلثوم وعبد الوهاب .. تتغير .

ولكن العلاقة ــ حتى سنة ١٩٦٢ ــ لم تكن قد تغيرت بعد بما يسمح بتعاونهما معا . ان آثار ســـنين طويلة مضت .. لم تكن قد زالت تماما بعد .

⊙❖⊙

ثم تغير الحال مرة أخرى فى يوليو سنة ١٩٦٣ .

ففى احتفال ٢٣ يوليـــو من تلك السنة أقام نادى الضباط حفلة ساهرة حضرها الرئيس جمـــال عبد النـــاصر . وكانت أم كلثوم وعبد الوهاب من بين المشتركين فى الحفل .

وفى الاستراحة دعاهما الرئيس جمال عبدالناصر الى تناول العشاء على مائدته .

وقال جمال عبد الناصر لام كلثوم وعبدالوهاب : اين الاغنية التى نقرأ فى الصحف أن أم كلثوم ستغنيها ويلحنها عبد الوهاب ؟ ألم يحن الوقت بعد لكي تتحول الاغنية من كلام تكتبه الصحف .. الى كلام يغنيه الناس ؟! .

ان جمـــال عبد الناصر لخص فى ســـطرين امنية عاشها الجمهور اربعين سنة !

وخلال اسابيع قليلة كان العمل قد بدأ فى الاغنية الجديدة . كلمات اختارها عبد الوهاب أصلا لكي يغنيها هو . ولكنه عندما بدأ يلحنها اكتشف أن : « اللحن لن تستطيع التعبير عنه غير أم كلثوم » .

واتصـــل عبد الوهاب بأم كلثـــوم فقالت : لا مانع . تعـــال نبحث الأمر معا .

ثم .. خرجت أغنية « انت عمرى » الى الناس . خرجت كبداية فى تعاون مشترك اتخذ من يومها بين أم كلثوم وعبد الوهاب .

⊙❖⊙

والواقع ان الحان عبد الوهاب لام كلثـــوم تمثل مرحلة مختلفة فى تاريخها الفنى . ان عبد الوهاب نقل مستوى منافسة الملحنين على صوت أم كلثوم الى نقطة اكثر ارتفاعا . بل ان عبدالوهاب كان حريصا على ان يجعل المقدمات الموســـيقية لاغانى أم كلثوم كعنوان الكتاب ، كخطاب العرش . فى خطاب العرش يتعهد رئيس الوزراء أمام الملك بأن حكومته ستعمل كذا وكذا وكذا ، انه يعطى هذه الوعود بعد أن يهاجم كل الحـــكومات السابقة . أنه خطاب ملىء بالوعود والآمال . ومقدمات عبد الوهاب الموسيقية فى اغانى أم كلثوم هى أيضا جدول أعمال .. قائمة وعود موسيقية طويلة !



احمد رامى .. المستمع الاول

ولقد قال لى عبدالوهاب اكثر من مرة : «ان صوت ام كلثوم يتميز بان قماشه عريض . ان فيه جمال القوة وحلاوة القفلة ورقة الجمال» .

وعندما سألت ام كلثوم عن تعليقها قالت : هذا راى عبد الوهاب .

ـ يعنى ايه ؟

ـ يعنى راى عبد الوهاب !

ـ انا عايز رايك انت فى راى عبد الوهاب ...

ـ لا أحب ان اتكلم عن نفسى . ان « نفسى » هى ابغض كلمة الى نفسى !.

◉✣◉

وعبد الوهاب يرى أيضا ان « ..لام كلثوم فضلين : فضلا كمغنية ... اذ انها جمعت من مواهب المطرب كل مايمكن للطاقة البشرية أن تجمعه . وفضلا آخر كمساهمة بعقلها فى رفع مستوى كلمات الاغانى فى مصر والشرق .. فلولا عقليتها الواعيه لما استطاعت ان تحتضن مثلا الشاعر أحمد رامى ، وان تجعله يتعاون معها ويجود بالمعانى الرائعة التى تؤديها ام كلثوم أحسن أداء » .

وبينما نجد أن محمـــد عبد الوهاب هو احدث ملحن تعاونت معه ام كلثوم .. فان أحمد رامى كان أول شاعر تعاون معها فى تاريخ مبكر من حياتها الفنية .

لقد غنت أم كلثوم لاحمد رامى .. قبل أن تراه .

ان احمد رامى سافر الى باريس فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ موفدا فى بعثة دراسية من دار الكتب المصرية .

وقبل سفره اعطى لصديقه الشيخ ابو العلا محمد قصيدة تقول :

الصب تفضحه عيـــونه وتنم عن وجد شئونه
انا تكتمنـــا الهـــــوى والداء اقتـــله دفينة
يهاجنا نوح الحمــــــا م وكم يحركنا أنينــه

◉✣◉

وعاد رامى من باريس سنة ١٩٢٤ ليجد أن قصيدته قد تحولت الى اغنية مشهورة لحنها الشيخ أبو العلا . أغنية تغنيها أم كلثوم .

ولم تكن ام كلثوم قد اقامت فى القاهرة بعد . كانت تأتى الى القاهرة للغناء فقط ثم تعود الى قريتها أو تغنى فى مدن أخرى .

وظل رامى ثلاثة ايام يسأل عن ميعاد اول حفل تغنى فيه ام كلثوم .

ان احمد رامى قد ينسى تاريخ ميلاده . ولكنه لاينسى تاريخ اول لقاء له مع ام كلثوم .

٢٤ يوليو سنة ١٩٢٤ .

فى تلك الليلة اشترى الشاب الشاعر الشـــاعر الشاب ـ الموظف بدار الكتب ـ احمد رامى تذكرة بخمسة قروش دخل بها صالة سانتى فى حديقة الازبكية حيث بدات ام كلثوم تغنى .

ويقول رامى : « كنت تواقا الى ان اسمع ام كلثوم وهى تغنى قصيدتى . انها لاتعرفنى بعد . ومع ذلك قمت فى استحياء اقول لها كأنها تعرفنى :

ـ أنا بقالى سنتين بعيد عن مصر .. ونفسى اسمع قصيدتى !

وبسرعة بديهة ردت أم كلثوم ضاحكة : اهلا سى رامى .. حمد الله ع السلامة . حاضر !

وعندما بدات أم كلثوم تغنى .. أصبحت انا فى عالم آخر .. سحرنى الصوت . سحرنى جماله . سحرتنى قوته . ولم أفق الا على صوت صديق لى يقول لى بعد الغناء : أم كلثوم مسافرة بكره تغنى فى راس البر .. مش تسلم عليها ؟!

وذهبت لاشكرها واتمنى لها السلامة .

ثم بقيت طوال الاربعين يوما التالية لا استطيع سماع صوت آخر يغنى . الى أن عادت أم كلثوم مرة اخرى لتحيى ليلة فى كازينو البوسفور ..

مرة اخرى جلست صامتا فى مقعدى كالمسحور .

ولكنى فى هذه المرة عبرت عن شعورى فى قصيدة كتبتها عن صوت أم كلثوم أقول فيها :

صوتك هاج الشجوى فى مسمعى ... وارسل المكنون من ادمعى
فيه صبابتى وفيه الضنى ... يشكو تباريح فؤادى معى
نظمت أشعارى وغنيتها ... منظومة الحباب من أدمعى
كأنما لفظك فى شدوه ... منحدر من دمعى الطبع

ولم تسمع ام كلثوم هذه القصيدة الا عندما زرتها لاول مرة فى شهر أكتوبر من تلك السنة . يومها فوجئت بطلب غريب من أم كلثوم .

قالت لى : اريد منك ان تنظم لى اغنية زجلية !

وتوقف لسانى عن النطق ! هذا طلب لا استطيعه ولا اقبله ! اننى حتى تلك اللحظة لم اكن قد نظمت شطرا واحدا من الزجل . وحتى تلك اللحظة كنت قد اصدرت ثلاثة دواوين من الشعر ونشرت ترجمة لرباعيات الخيام عن الفارسية . لا لا . لن اكتب زجلا !

ولكن ام كلثوم استمرت فى الحديث . قالت : اننى غنيت لك من قبل قصيدة : « الصب تفضحه عيونه » . وانا ارى ان من حق الغناء ان يظفر بخيال الشعراء فى اسلوب يفهمه العامة . حل وسط . والا .. هل يعجبك مستوى الاغانى التى تغنى فى هذه الايام ؟!

عند هذه النقطة اقتنعت . وافقت على ان اكتب الزجل لاول مرة . لهذا كتبت لها : « خايف يكون حبك ليه شفقة عليه ... وانتى اللى فى الدنيا ليه ضى عنية » .

ثم استمررت فى كتاباتى لأم كلثوم . شعر مرة.. وزجل مرة. بعدها غنت لى ام كلثوم : « ياغائبا عن عيونى وحاضرا فى فؤادى » — « ايها الفلك على وشك الرحيل » — « يانسيم الفجر ريان الندى » .. الى ان غنت لى : « ان كنت اسامح وانسى الاسية » . وهى الاغنية التى مثلت فى وقتها طفرة غنائية » .

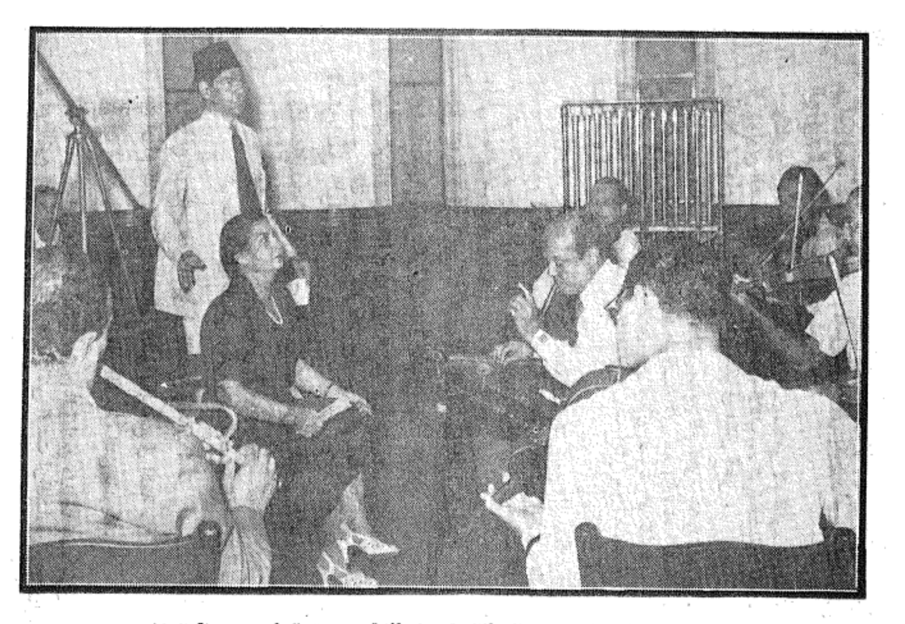
⊙❖⊙

انتهت ذكريات رامى . ولكن علاقتـــه الفنية بأم كلثوم لم تنته . فلقد غنت له أم كلثوم اكثر من مائتين وخمسين قطعة غنائية من بينها « رق الحبيب » و « ياما امر الفراق » و « ياظالمنى » و « ســـهران لوحدى » و « رباعيات الخيام » و « انت الحب » .. الخ .

ولكن رامى — فوق علاقتـــــه بأم كلثوم كشاعر له علاقة أخرى بها كمستمع .

فمنذ استمع اليها لاول مرة سنة ١٩٢٤ ، لم تفته اى حفلة من حفلاتها الغنائية . لقد اصبح حريصا على ان يكون « مستمعها الاول » . هذا تعبير رامى .

وعندما كانت ام كلثوم تغنى فى الاقاليم لم يكن غناؤها ينتهى قبل الثانية صـــــباحا . فكان رامى يخرج من الحفلة جريا الى محطة السكة الحديد حتى يلحق بقطار الصحف ويعود الى عمله بالقاهرة فى الصباح الباكر .



ام كلثوم مع رياض السنباطي وعبده صالح أثناء تسجيل اغنية « صوت الوطن » سنة ١٩٥٢ م.

وحينما بدات ام كلثوم تسجل للاذاعة فى الثلاثينات .. كانت تاخذه لكى يستمع اليها اثنــاء التسجيل فى الاستوديو ، بشرط ان يجلس صامتا تماما . كانت ام كلثوم تفعل ذلك حتى يكون رامى امامها رمزا للجمهور فى خيالها ، جمهور صامت .

وكان رامى ـ طوال عمله بدار الكتب ـ يستعير لام كلثوم من الدار كل دواوين الشعر العربى القديم وكتب الادب .. ثم يناقشانها معا . وقد اشارت ام كلثوم لمجهود رامى هذا فى مكان آخر .

اما احمد رامى فيقول : « .. اننى مدين لام كلثوم بنشر شعري . ان اقصى رقم وزع من اى ديوان طبعتــه كان خمسة آلاف نسخة . ولكننى اصبحت معروفا للملايين من خلال صوت ام كلثوم . ان اســطوانة (ان كنت اسامح) مثلا وزعت اكثر من نصف مليون نسخة » !

ويقول رامى ايضا : اننى كنت استفيــد كثيرا من التعديلات التى تطلبها ام كلثوم فيما اكتبه . ففى اغنية « دليلى احتار » مثلا ، طلبت ام كلثوم تكرار جزء من المطلع يقول : وبين قربك وخوفى عليـــك .. دليلى احتار .. وحيرنى .

وفى اغنية « قصة حب » كنت قد كتبت بيتا اقول فيه :

عشت فيها بيقينى ثم عاشت فى ظنونى .

ولكن ام كلثــوم قالت ان هذا البيت فيه فجوة . وانه يحسن ان أوضــــح كيف عشت فى ذكرياتى بيقينى ، ثم كيف عاشت هـــذه الذكريات فى ظنونى .

ولذلك اعدت كتابة البيت فاصبح كما يعرفه الناس الآن :

عشت فيها بيقينى وهى قرب ووصــــال
ثم عاشت فى ظنونى وهى وهم وخيــــال

والواقع ان رامى معه الحق فى نقطتين بالذات :

* ان أم كلثوم نشرت بغنائها الذوق الرفيع فى اللغة .
* ان شخصية ام كلثوم تمتد الى الكلمات التى تغنيها .

لقد لخص عباس محمود العقاد هاتين النقطتين عند ما كتب يقول عن ام كلثوم « .. انها المطربة الموهوبة التى اثبتت ان الغناء فن رءوس

وقلوب وليس بفن حناجر وافواه فحسب . فهى تفهم ماتغنيه . وتشعر بما تغنيه ، وتعطيه من عندها نصيبا وافيا الى جانب نصيب المؤلف ونصيب الملحن » ..

واستطيع ان اقول كلمات العقاد بطريقة اخرى : ان أغانى ام كلثوم هى الصدى الصوتى لام كلثوم . اما الكلمات ــ كلمات الاغانى ــ فهى الصدى العقلى لأم كلثوم .

لقد غنت ام كلثوم للحنين كثيرين : الشيخ ابو العلا ــ داود حسنى ــ فريد غصن ــ أحمد صبرى ــ محمد القصبجى ــ زكريا احمد ــ السنباطى ــ عبدالوهاب ــ بليغ حمدى ــ محمد الموجى ــ الطويل.

وغنّت لشعراء كثيرين : أحمد شوقى ــ حافظ ابراهيم ــ رامى ــ بيرم التونسى ــ ابراهيم ناجى ــ أحمد شفيق كامل ــ مرسى جميل عزيز ــ عبد الوهاب محمد ــ جورج جرداق .. الخ .

وفى كلّ مرة كان عقلُ أم كلثوم يتحولُ الى معملٍ . الى جهاز يقارن ، يختار ، يعدل ، يضيف ، يحذف ، يقرر ..

لقد عدلت مثلا فى كلمات الشاعر أحمد شوقى . قصيدة « الى عرفات الله » مثلا . يقول المطلع الاصلى : عليك صلاة الله يا ابن محمد . الاشارة هنا الى الخديو . ولكنها غنته : عليك سلام الله يا خير زائر . وفى نفس القصيدة اصطدمت بكلمة : « العرصات » . كلمة قد يستهجنها البعض فاستبدلتها بكلمة : الشرفات .

وفى قصيدة ابراهيم ناجى : « الاطلال » اضافت الى القصيدة الاصلية هاتين الشطرتين :

هلْ رأى الحب سكارَى مثلنا   كم بنينا من خيالٍ حولنا

ثم هذا البيت :

وانتبهنا بعد مازال الرحيقْ   وافقنا .. ليت انا لانفيقْ

لقد كتب الشاعر هذين البيتين اصلا فى قصيدة اخرى بعنوان : « الوداع » . ولكن أم كلثوم اضافتهما الى قصيدة « الاطلال » ؟ وبطريقة لاتستطيع اكتشافها من أول مرة .

ان الامثلة كثيرة ..

والمهم ليس هذا التعديلُ . المهم ان يكون التعديلُ الى احسن . الى ارق ..

ان أم كلثوم فى حرصها على تعديلٍ ـ ثم اعادة تعديلٍ ـ الكلمات قبل ان تغنيها انما تضع أيدينا على مفتاح آخـر لفهمها . جانب آخر من شخصيتها الغنائية . جانب لم يكتشفه حتى الآن غير عدد قليل من الذين عملوا معها ..

ان ماتبحث عنه أم كلثوم هو الشيء الجديد. تبحث عن فكرة ، معنى ، تعبير ، جملة ، أو ـ حتى ـ كلمة ! انها تفعل ذلك نيابة عن مستمعيها . صفة ضرورية جدا لكل مطرب يريد النجـــاح ، أو الاستمرار فى النجاح .

ام كلثوم يعجبها مثلا تعبير تقول فيه **«بافكر فيك.. وانا ناسى»** او **« عزة جمالك فين .. من غير ذليل يهـواك »** او **« واحشنى وانت قصاد عينى»** أو **« أغمض عينيك حتى ترانى »** تعجبها اغنية تتلاعب فيها بكلمات تقول **« يسقينا الهنا .. ويقول بالهنــا »** أو **« ياما عيون شاغلونى .. لكن ولا شغلونى »** ..

تعجبها صورة دقيقة الظلال يرسمها الشاعر بقوله :

ما بين بعــدك وشـــوقى اليـــك
وبين قربك وخـــوفى عليـــك
دليلى احتـــــار .. وحـــيرنى

تعجبها صورة تركز صراعا نفسيا حادا فى اربع كلمات تقولَ : **« غلبت اصالح فى روحى »** او فى خمس كلمات تقول **« آكاد آشك فيك وانت منى »** ..

ام كلثوم تحب ان تتذوق التعبيرات القــوية المركزة . تعبيرات مثل **« ظالم الحســـن »** أو **« هل رأى الحب سكارى مثلنا »** أو **« الثوانى جمرات فى دمى »** ، تعبيرات تصور نفس المعنى بأسلوب مختلف . مرة بقولها **« آنت اقرب منى ليه .. حتى وانت بعيـد عليه »** ، ثم مرة أخرى **« وانت معايا يصعب عليه .. رمشة عينيه ولا حتى ثانية »** ..

لهذا السبب أقول أن مفتاح الشاعر الى صــوت أم كلثوم هو عقلها . والمفتاح الى عقلها هو الكلمة الجديدة .. الجملة الجديدة .. الصورة الجديدة . مسالة عبر عنها أذكى صــديق لأم كلثوم بقوله : **« .. لو كنت شاعرا لكتبت ديوانى على شفتى ام كلثوم »** سوء حظ ، فالكاتب هنا ليس شاعرا ، ومع ذلك فهذا اجمل تعبير قرأته لكاتب عن أم كلثوم ..

◎❖◎

والواقع ان محاولة أم كلثوم للتذوق لا تقتصر على الكلمات التى غنيها فقط ، وانما تمتد الى اللحن أيضـــا . وان زكريا احمد ـ الفنان الموهوب الراحل ـ عندما عبر عن ذلك فى مذكراته كتب قول ان أم كلثوم « .. عندما تجلس الى ملحن اغانيها أو يجلس ليها ، لا تكتفى بأن يقدم لها لحنا واحدا أو اثنين او ثلاثة .. وانما هى تريد أكثر من ذلك . وقد تطلب من الملحن أن يلحن الكوبليه لواحد مرات متعددة ، وتتظاهر بعدم قبول هـــذه الالحان .. وتتظاهر بعد أن تختار واحدا من الالحان المقدمة بنسيان ما قدم للاغنية الواحدة من الحـــان .. وتجدد فى معظم الاغانى بألحان جديدة تبدو للمستمع الجديد انها وليدة الســاعة .. وان كانت مخزونة فى أعماق ذاكرتها من بعيد » ..

مرة اخرى يكتب زكريا أحمد قائلا « .. وذات مره قدمت لها غنية بثمانية الحان مختلفة ، لأتيح لها فرصة الاختيار فى الوقت لمناسب او فى الاوقات المناسبة . اننى اعتبر ان أم كلثوم (أسطى) من خيرة (اسطوات) الفن .. وصائغة من أمهر صائغات الغناء .. ولهذا فقد اختصصتها بأكثر من ستين لحنا ليس فيها لحن يشبه الآخر فى تلحينه » ..

والواقع ان زكريا احمـد لحن لام كلثوم عددا من اروع واحب اغانيها عند الناس .. لحن لها « أنا فى انتظارك » و «أهل الهوى» و « الامل » و « غلبت أصالح فى روحى » و « الآهات » و « هو صحيح الهوى غلاب » و « رق الحبيب » .. الخ .

وخلال أحاديث طويلة متعددة لمست من أم كلثوم وفاء بالغا لعدد من الذين صاحبوها فى حياتها الغنائية،من بينهم ـ بل على رأسهم ـ زكريا أحمد .. شعور تبادله زكريا أحمد معها منـــذ اول لحنين قدمهما لها فى سنة ١٩٢٥ وهما « اللى حبك يا هناه » من تأليف أحمد رامى و « هو ده يخلص من الله » تأليف بديع خيرى .

من هذا اليوم ـ يقول زكريا أحمـد فى مذكراته ـ أصـــبحنا « .. القصبجى وداود حسنى وانا نلحن لها حتى قدم لها مسيو رو مدير شركة اوديون الاستاذ رياض السنباطى . ومنذ هــذا يوم اصبح ملحنو أم كلثوم هم السنباطى والقصبجى وأنا » ..

⊙✤⊙



امكلثوم بين فريد الاطرش ومحمدالموجي

السنباطى ..؟!

نعم .. هذا هو الاسم الذى كتبه زكريا احمد . ان هذا الاسم مضلل . انه لا يدل بأى حال على كل الرقة ، كل الجمال ، الذى تعبر عنه الحان السنباطى لام كلثوم ، ان أم كلثوم تؤمن بالتخصص ويبدو أن هذا هو السبب فى انها تسند الى السنباطى القصائد الصعبة ــ احيانا الصعبة جدا ــ لكى يقوم بتلحينها .

لقد التقت أم كلثوم بالسنباطى وهى صغيرة ، فى الواقع انهاكانت ليلة ممطرة على محطة سكك حديد الدلتا فى قرية قرين بالدقهلية كانت أم كلثوم ما تزال فتاة صغيرة تضع العقال فوق رأسها . وفى تلك الليلة وقفت بين أبيها وشقيقها وقدم والد رياض السنباطى وبرفقته ابنه رياض ، ان الابوين الشيخين كانا يتحدثان معا عن الرزق فالغناء هو ميدان عمل كل منهما . بعد تلك الليلة لم يلتق السنباطى بأم كلثوم الا بعد سنوات عديدة فى شركة كايروفون .. حيث كان السنباطى قد أصبح يعمل مدرسا بمعهد الموسيقى العربية .. وام كلثوم نجمة مشهورة فى المنطقة باسرها ، من هذا



زكريا احمد .. وفاء بغير حدود

اللقاء بدات الحان السنباطى لام كلثوم .. واستمرت حتى الآن ، الحان تتفوق على نفسها . خذ مثلا لحن « الاطلال » او « دليلى احتار » او « هلت ليالى القمر » او «ياللى كان يشجيك انينى» او «رباعيات الخيام» او « هجرتك » خذ ايضا اغنية « يا ظالمنى » وقصيدة « ولد الهدى » واغنية « لسه فاكر » و « أروح لمين » و « سهران » .. آه .. تصور أن السنباطى وضع لحن اغنية « سهران » فى سنة كاملة ! هذا هو السنباطى . لحن واحد كل سنه !

بعد أن يضع السنباطى اللحن تبــدأ جلساته مع ام كلثوم . هذه كلماته هو : « أحيانا نجلس فى حجرتها الزجاجية اذا كنا فى الشتاء نهارا كاملا بلا طعام ، بلا ماء ، بلا تليفون ، بلا زوار . ان أم كلثــوم تستغرق الوقت كلهفىاجراء بروفة علىكوبليه واحد فقط ، فأم كلثوم لاتغنى اللحن العادى أو الكلام العادى . فاللحن الذى يوضع لام كلثوم أشبه ببناء السد العــالى . وتمر الايام على هذا المنوال أسابيع ثم شهورا نضع فيها لحنا يخرجالى الجماهير فتلقاه بالحبوالاعجاب » .

ان ام كلثوم تسمى السنباطى بالعبقرى . وفى اكثر من مرة كنت المس منها تساؤلها عن السبب فى أن الصحف لاتعطى للسنباطى حقه من التقدير كما تعطى لغيره . ما زال التساؤل قائما .

⊙❖⊙

ان محمد القصبجى وزكريا احمد ، ان عبد الوهاب والسنباطى ، احمد شوقى واحمد رامى ، ابراهيم ناجى واحمد شفيق كامل ، بيرم التونسى ومأمون الشناوى .. كل هؤلاء - وغيرهم كثيرون - انما يضعون أيدينا فى النهاية على عدة ملاحظات تتعلق بهذا الجانب من شخصية أم كلثوم .

● **فأولا** : ان كل لحن ، كل قصيدة ، تغنيها ام كلثوم هى فى الواقع قطعة من نسيج طويل متصل الخيوط . نسيج يمثل صدى افكار ومشاعر ام كلثوم نفسها . انه صدى .. انه صورة .. انه اختيار .. انه تعبير من وعن شخصية أم كلثوم نفسها .

● **وثانيا** : انك لاتستطيع ان تقارن بين ملحن وملحن - بين شاعر وشاعر فبينما تغنيه أم كلثوم لكل منهما . لا تستطيع ، لان المقارنات هنا - برغم فائدتها احيانا - تصبح مضللة .

● **واخيرا** .. فان دراسة عدد من الملحنين والشعراء الذين تعاونوا مع أم كلثوم .. ما زال امرا هاما بالنسبة لدراسة أم كلثوم نفسها . دراسة تمثل فى النهاية .. بابا خلفيا للشخصية التى تجمع بين هؤلاء جميعا : أم كلثوم .



ان أم كلثوم غنت وأحبت فاستمرت

٠٠ في سنوات لا يستعرفها أحد !

أم كلثوم بين الفن والسياسة !

لكى نحب بلدنا .. يجب أولا أن تحبنا بلدنا . حب بغير شروط . بغير تحفظات. تماما كحب الام لطفلها. ان الام لاتحب طفلها عندما يكون هادئا ، وتكرهه عندما يكون شقيا . لاتطعمه عندما يطيعها ، وتجيعه عندما يخالفها . لا . الام تحب طفلها فى كل لحظة ، كل ساعة . كل سن . انها تحبه ـ ليس لانه حقق لها رغباتها ـ ولكن لمجرد انه طفلها . هذا يكفى . انها لاتستغل حاجته اليها . لاتستغل سلطتها عليه . انها لاترهبه . لاتخيفه . ولكنها تغريه . تشجعه . تدفعه . انها تقدم له حبها بغير ثمن . بدون مقابل . .بلا تعويض . انها تعطيه حبها خالصا . على بياض ..

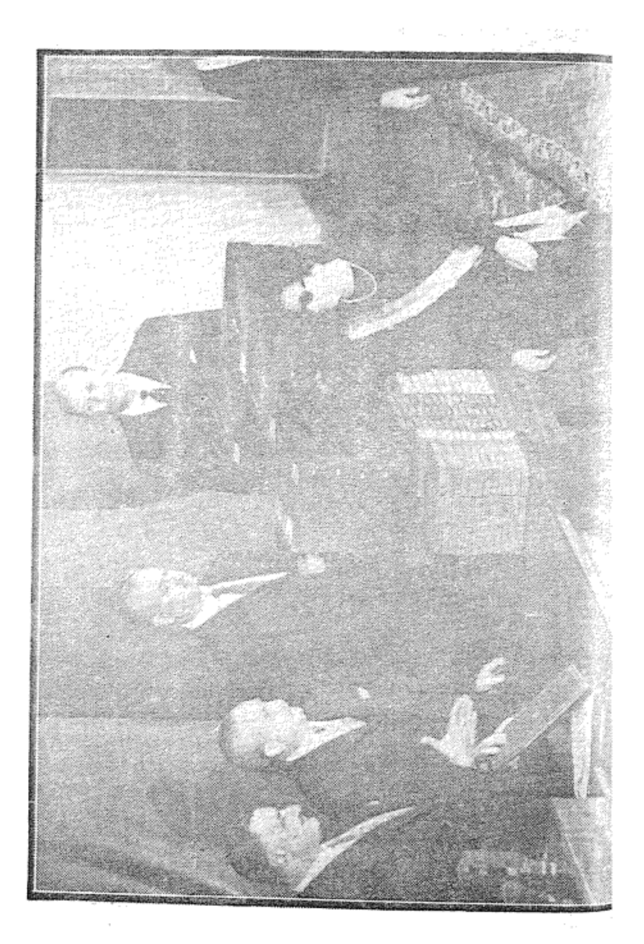
و ...

لقد أعطت بلدنا ـ امنا ـ حبها لام كلثوم على بياض . بلا تحفظات . هذا واحد من الامثلة القليلة النادرة فى حياتنا العامة . استثناء . لقد تصرفت الام هنا بحكمة. احبت طفلتها بلاحدود. فكانت النتيجة أن الطفلة احبت امها . والفنانة أحبت جمهورها . و .. أم كلثوم أحبت بلدها . حب بغير حدود .

وخلال سنتين اثنتين دارت ام كلثوم حول الكرة الارضية مرتين ! من باريس الى المغرب . من تونس الى لبنان . من السودان الى ليبيا . من الكويت الى طنطا . من المنصورة الى دمنهور . من الاسكندرية الى القاهرة .

وفى كل مرة كانت ام كلثوم تعود فيها الى القاهرة كانت تعود بمبلغ ضخم فى يدها ، وحب ضخم فى قلبها . لقد غنى صوتها بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ غنى صوتها .. وجمعت يدها الحصيلة .

الحصيلة هى مليونان من الجنيهات قدمتهما أم كلثوم لبلدها فى سنتين . تبرع اختيارى . مساهمة عاجلة . تبرع من الجمهور الى فنانته . ومساهمة من الفنانة لبلدها .



ولكن حب ام كلثوم لبلدها أهم من تبرع جمهورها لها . العاطفة هنا اهم من النقود . القدوة اهم من المال .

ان مصر احبت أم كلثوم بغير حدود ، فأحبتها أم كلثوم بغير حدود. عرفان بالجميل . تقدير لعواطف متراكمة . وفاء لحب سابق .

انك سوف تلمس مظاهر هذا الوفاء دائما في كل حديث لام كلثوم . عندما يهتف لها الجمهور في المغرب مثلا فهي تقول : « ... كل هذا الحب لمصر . كل هذا الهتاف من أجل مصر .. وليس من اجلي » .

قبلها تقول في باريس : « أنا مجرد مواطنة مصرية . لم اعمل شيئا استحق عليه كل هذا النجاح . أن بلدي هي صاحبة الفضل الاول في نجاحي » . هكذا تقول أم كلثوم في باريس .. في السودان .. في الكويت .. في ليبيا .. في لبنان ، في كل بلد خارج الحدود تعبر أم كلثوم عن وفائها للحب الذي تلقته داخل الحدود . في كل عاصمة تعلن انها عظيمة لان شعبها عظيم . ساحرة لان بلدها ساحر . تكافح بصوتها لان بلدها يكافح بسلاحه .

عند هذه النقطة ـ هذه النقطة بالضبط ـ انتقلت ام كلثوم الى قمة اخرى . قمة ثانية . من قمة الغناء الى قمة الوطنية . من قمتها كمغنية ، الى قمتها كفرد عادي . تصور .. ! الفرد العادي يستطيع هو الآخر أن يكون قمة في سلوكه ، في عمله ، في تصرفاته ، في مساهمته لبلده .

لقد فعلت ام كلثوم ذلك في المرحلة التي لم تعد تحتاج فيها الى اثبات شيء جديد . انها تغني ، وهي قمة حينما تغني . انها فنانة ، وهي قمة في فنها .. هذا يكفي . لا .. هذا لايكفي .. كما أثبتت أم كلثوم . لقد تأكدت قيمتها كفنانة .

بقي ان تتأكد قيمتها كفرد عادي . هذا ضروري في فترة سوف يكون الفرد العادي هو بطلها . فترة بدات بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ .

ففي صراع مرير لتصحيح الهزيمة أمام اسرائيل سنة ١٩٦٧ ، سوف يكون الفرد العادي هو دائما البطل . هو القدوة . هو النموذج . انه ـ بعمله ، باجادته لعمله ، بقدوته في سلوكه ـ سوف يحسم في النهاية معركة طويلة ، ويسوي حسابا مفتوحا ، مع اسرائيل .

هنا بالضبط بدات ام كلثوم تضرب المثل في سلوكها كفرد عادي . لقد تراجع الفنان هنا الى الخلف ، وافسح مكانه للفرد العادي . تراجع

صوتها الى مجرد وسيلة نحو هدف أكبر : تعبئة العواطف بالتضحية ؛ وتعبئة الخزائن بالنقود ، وتعبئة البنادق بالرصاص .

هنا بالضبط بدات شخصية أم كلثوم تنمو فى اتجاه جديد . بدات تنمو فى السن التى يتكور فيها الجسم ويتجعد الوجه وتتساقط الاسنان وتنطفىء الذاكرة . هنا تعود ام كلثوم شابة من جديد . .

فى السن التى تتدهور فيها الصحـــة ، وينكمش العقل ، وتضعف الرؤية ، وتتثاقل الخطوات . .بدات أم كلثـــوم تسرع خطواتها الى هدف جديد .

فى الســن التى يتحول فيها الماضى الى حاضر ، السن التى يبدا فيها الانسان يجتر ماضـــيه ، يبـــدأ فى الحياة على سمعة ماضيه ، بدات أم كلثوم تعيش على سمعة حاضرها ، وسمعة مستقبلها .

فى هذه المرحلة ، هذهالسن ، هذه الظروف ، بدات أم كلثوم تصعد من جديد الى قمة جديدة . قمة خالية .

فى هذه المرحلة ، هذهالايام ، بدأ الجزء الفنى فى شخصية أم كلثوم يتراجع الى الخلف ، مفسحاً مكانه الى الجزءالاساسى فىشخصيتها، الجزء الوطنى .

من الآن فصاعدا ســـوف تصبح مواطنة اولا ، وفنانة بعد ذلك ؛ المواطنة تقرر ، والفنانة تنفذ القرار .

من الآن فصـــاعدا سوف تغنى أم كلثوم . . ولكن لصالح تبرعات ازالة آثار العدوان . . أو لصالح تعمير مدن القناة . . او لأى عمل يخفف عن بلدنا آلام الهزيمة ويساهم فى جهود النصر . .

من الآن فصاعدا سوفتحرص امكلثوم على انتكون مصرية بنسبة ١١٠٪ ، بعد أن أثبتت أنها فنانة بنسبة مائة فى المائة . تثبت بعملها ماغنته من قبل بصوتها : « بنى الحمى والوطن . . من منكمو يحبها مثلى أنا ؟ » . .

من الآن فصاعدا لن تكون أم كلثوم مجرد فرد . مجرد جسم » مجرد انسان تأكل وتنـــام وتغنى وتستريح البال . . لا . انها ــ من هذه الدقيقة ــ سوف تصبح مواطنة تفكر . وتحمل الهموم وتجمع القرش فوق القرش لكىيصنع بلدها الرصاصة فوق الرصاصة .

من الآنفصاعدا سوف تجمع امكلثوم كل قرش لكى تعطيه لبلدها،

الف جنيه ، عشرة آلاف جنيه ، مائة الف ، نصف مليون ، مليون ، ٢ مليون جنيـــه ! هذا هو الرقم الذى وصلت اليه اخـيرا التبرعات والايرادات التى جمعتها أم كلثوم خلال سنتين . تبرعات اختيارية . تبرعات قدمها الجمهور الى بلده بوساطة ام كلثوم . قدمها خلال عشرين حفلة غنت له فيها أم كلثوم .

والسؤال الآن : لمـاذا ؟

لمـاذا كل هذا النجاح ؟

لمـاذا الآن . . . لمـاذا بهذه السرعة . . بهذا الاقبال ؟

ان جزءا من الاجابة سوف نجده فى شخصية أم كلثوم نفسها. ولكن الاجابة الكاملة سوف تجدها فى تفسير آخر .

تفسير فنى لعمل سياسى قامت به أم كلثوم .

لقد اعطت أم كلثوم نموذجا لما يستطيع الفنان ـ والفنان فقط ـ أن يفعله لبلده . نموذج شهده التاريخ من قبل مئات المرات . . وسوف يشهده مئات المرات . .

ان الفنان هو ـ فى الواقع ـ أكثر من يحب بلده من ابناء بلده . الفنان يستطيع ان يحب بلده فى ساعة حبا لا يستطيعه غيره فى سنة. الفنان ـ اديبا أو موسيقيا او رساما أو كاتبا أو صحفيا او مطربا ـ يستطيع ان يترجم لك الوطنية الى أشياء بسيطة مفهومة . الى هواء نقى تتنفسه ، وارض حرة تعشقها . ان الجمهور عند الفنان سواء : الشاب والعجوز ، المرأة والرجـل ، اليمينى واليســارى ، الرجعى والتقدمى. كل هذه التقسيمات تختفى من قاموس الفنان ليحل محلها تقسيم آخر مختلف : مواطنـون يحبون بلدهم . . وأعداء يحتلون أرضهم . .

بهذا المعنى تتحول السياسة عند الفنان الى شىء خال من التعقيد والفلسفة . السياسة هنا هى الدفاع عن الارض . دافع عن حياتك . عن سمائك . عن هوائك . عن بلدك . دافع عن أرضك .

فى هذه النقطة يقف الفنان فى المقدمة . انه ليس خلفنا ، ليس بجانبنا ، انه امامنا ، لان الفنان ـ يقول مكسيم جوركى ـ هو أكثر البشر التصاقا بالارض .

لهذا السبب فان الشخص عنـدما يصبح فنـانا فانه يتحول الى



غناء ورقص شعبى فى المغرب .. احتفالا بأم كلثوم ..

نموذج . الى رمز . رمز لكل ماهو جميـل وباق ومحبوب ومستمر في بلده . .

ولقد بدات شخصية ام كلثوم تحمل هذه البـذور منذ فترة طويلة مضت ، لقد دخلت الى المسرح تغنى مرة فى شـهر فبراير سنة ١٩٤٩ ، ولكنها قبل أن تغنى فوجئت بضابط يستوقفها ليقدم اليها خطابا مغلقا . ما هذا الخطاب ؟ ماذا بداخله ؟ ورقة ؟ آه .. ما هو المكتوب فى الورقة ؟ مش معقول .. انه رجاء يقدمه اليها ضباط وجنـود الفرقة المصرية المسـلحة التى يحاصرها الاسرائيليون فى الفالوجة « نريد ان نسـمع منك فى حفل الليلة المذاع بالراديو اغنية غلبت أصالح فى روحى » ! قطعة غنائيةتحولت الى مهمة وطنية . ليلتها قطعت أم كلثوم وصلتها الاولى لتقدم الاغنية المطلوبة كما لم تغنها من قبل ..

وفى حرب ١٩٥٦ كانت القنابل تتساقط على محطات ارسال الاذاعة ، والانوار مطفأة داخل استوديوهات الاذاعة نفسها ، ولكن أم كلثوم دخلت الاستوديو لتحفظ أغانيها للمعركة وتسجلها على ضوء الشموع ..

وبعد نكسة يونيو ١٩٦٧ لم تنتظر أم كلثوم الدعوة من أحد لكى تؤدى دورها ـ واجبهـا ـ كمواطنة ، كفرد عادى . لقد بادرت بالدعوة الى اقامة تجمع وطنى للمرأة المصرية .. تجمع يساهم بأى مجهود لترميم ـ ثم تعبئة ـ المشاعر الوطنية للمرأة المصرية بعدها قادت الحملة لجمع تبرعات المواطنين ، الذهب ، الاموال الهدايا .. اى مبلغ ، اى هـدية ، اى رمز .. يكفى للتعبير عن مساهمتك لبلدك .. دور بداته أم كلثوم مبكرا بعد النكسـة . مازال الدور مستمرا ..

وفى كل الاحيان كان المعنى اكبر من المبالغ المتجمعة ، الرمزاكبر من المال . خذ مثلا تلك العروس التى ذهبت لتحضر حفل أمكلثوم بمدينة المنصورة (فبراير ١٩٦٨) حفل اقامته أم كلثوم لصالح تبرعات ازالة آثار العدوان .. ان العروس قدمت دبلة زواجها لكى يجرى عليها مزاد فى الحفل ، وفى لحظات تسابق الجميع على شراء الدبلة دون أن يسترد أحدهم الرقم الذى عرضه ونسخه آخر ، ان الدبلة ثمنها جنيه ، ولكنها بيعت بألفى جنيه ! ..

وقبل أن تمضى خمس دقائق على هذا الرقم فكرت طفلة صغيرة كانت تحضر نفس الحفل ، لقد تقدمت الطفـلة بحفنة من تراب

المنصورة فى كيس صغير من الحرير لكى يجرى عليها المزاد بنفس الطريقة التى جرى بها على دبلة العروس ، فى لحظات بيعت حفنة التراب بثلاثة آلاف جنيه .. هذا ترابنا .. أرضنا .. نفديها بمالنا .. بحياتنا .. هذا هو المعنى الذى استطاع الفنان ـ استطاعت أم كلثوم ـ أن تحوله الى رمز ونموذج ..

و .. ..

هذا هو الجانب الآخر فى شخصية أم كلثوم ، الجانب الذى يجب أن ينتهى اليه كل تقييم لأم كلثوم ، لقد تابعنا ـ طوال صفحات الكتاب ـ شخصية أم كلثوم من زوايا عديدة : أم كلثوم عندما تغنى عندما تختار ما تغنيه ، وعندما تستريح مما تغنيه ، أم كلثوم على المسرح .. وفى البيت .. مع المستمع .. ومع الشاعر والملحن . ثم ـ الآن ـ أم كلثوم كشخصية وطنية ، كفرد عادى ..

انها جوانب مختلفة من حياة أم كلثوم وشخصيتها ، ان الصفحات السابقة قامت «بتفكيك» شخصية أم كلثوم وحياتها. والصفحات القادمة ستحاول اعادة ربط شخصية أم كلثوم وحياتها من جديد.

ان ما يهم فى حياة أم كلثوم ليست الطريقة التى ترويها بها ، ولكن الطريقة التى عاشتها بها . ان ما تحتاج امراة أخرى الى اختراعه .. جربته هى .. ما تنسجه أخرى من الخيال .. مارسته هى .. ما تحلم بنصفه اى امراة .. حصلت عليه أم كلثوم كاملا ، انها غنت كما لم يغن أحد، فاستمع اليها الجمهور كما لم يستمع لأحد ، ان بلدها أحبها كما لم يحب أحدا ، فأحبت هى بلدها كما لم يحبه أحد ، انها ـ باختصار ـ غنت وأحبت فاستمرت .. فى سنوات لا يستمر فيها أحد ! ..

ان السبب فى هذا كله كان بسيطا بقدر ما كان صعبا : انها استطاعت أن تلخص وتركز وتمثل مشاعر جمهور كامل على امتداد جيلين أو ثلاثة ، ظاهرة مألوفة فى حياة كل شعب، ففى أوقات معينة من التاريخ يستطيع شخص واحد ـ فنان واحد ـ أن يكون رمزا لذوق شعبه ومشاعره ..

هذا ما فعلته أم كلثوم . فعلته فى القاهرة .. وفى الخرطوم ، فعلته فى المغرب ، فى الكويت ، فى تونس ، لبنان ، ليبيا ، فعلته ..

حتى فى هونج كونج ، حتى فى كندا !

ان هونج كونج هى بلد الغرائب . ولكن الغريب بالنسبة لى كان مابلى : سيدة مصرية متزوجة . انها متزوجة من مدير فندق هيلتون بهونج كونج .. انها مقيمة هناك منذ أربع سنوات . شقة انيقة فى الدور الثالث من الفندق .

وقبل ان اغادر هونج كونج سألت السيدة المصرية مجاملا :

ـ الا تريدين اى شىء من مصر ؟

وردت السيدة بلهفة : آه .. ارجوك !

ـ ماذا ؟

ـ اسطوانات . اسطوانات ام كلثوم . ان احدث اسطوانة عندى هى «انت الحب» . اريد اسطوانات كل الاغانى التالية لها. لاتنس .. ارجوك لا تنس !

⊙❖⊙

ومن هونج كونج فى الشرق الاقصى ـ الى كنـدا فى اقصى الغرب ، تكررت لى نفس التجربة !

لقد ذهبت الى كندا مرة فى مهمة صحفية ، ان كندا بلاد بعيدة .. بعيدة .. بلاد تفصلنا عنها صحراء وبحار ومحيطات و ١٧ ساعة بالطائرة ، بلاد نأتمنها على اربعين الف مواطن عربى يعملون هنا .. ويعيشون هناك ..

اننى سوف انسى اشياء كثيرة قبل ان انسى لقاءاتنا كل ليلة فى احد المطاعم المملوكة للعرب بمدينة مونتريال ، مطعم صغير ، ولكنه كان كبيرا جدا بالنسبة لنا ، لان صاحبه يمتلك عدة شرائط سجل عليها أحدث اغانى ام كلثوم ، (احدث هنا تساوى عشر سنوات مضت !) ـ كنا نلتقى كل ليلة ـ مجموعة من المواطنين العرب .. وانا .. ثم .. نبدأ فى سماع اغانى أم كلثوم . شىء واحد أجمعنا عليه : ان بلادنا كلها تعيش فى هذا الصوت . نيل مصر،جبال لبنان تلال الاردن ، لهيب الجزائر ، سحر المغرب ، حضارة بغداد ، تاريخ القاهرة ، عمق المحيط ، صفاء السماء ، اتساع الصحراء ..

واحيانا كان هذا كله يختفى عندما يتعطل جهاز التسجيل .. لحظتها يسكت هذا كله . يتحول الى صدى . ذكرى . أمل . والى أن ينجح أحدنا فى اصلاح الجهاز .. فان كل لحظة تزن فوقنا



ام كلثوم بعد الغناء .. صورة وراء الستار .. صورة لا يراها الجمهور

كجبل . ثم .. يعود الصـــــوت . تعود بلادى ، بلاده ، بلادها ، بلادنا ..

كيف حال بلادنا ؟ ..

بلادنا تستعد .. شبابنا يحارب .. ارضنا ترويها الدماء ..

واسال ام كلثوم : ماذا تقراين الآن ؟ ..

وهى ترد : قصيدة شعر لنزار قبانى . يقول احد أبياتها ..

الى فلسطين طريق واحد يمـــر من فوهة بندقية

هنا تقول ام كلثوم : ان القضية قضية ارض فلســطين لم تكن ارضا خالية من السكان . فلسطين كانت شـعبا يملك الارض . والشعب يجب ان يعود . ليست المسالة احسانا يقدمه العالم الى اللاجئين . ان فدائيينا كسبوا لنا فى سنة مالم تكسبه لنا اصواتنا فى عشرين سنة ..

واسال : ام كلثوم .. ماذا تتصورين اننا نحتاج اليه الآن ؟..

وام كلثوم ترد : رصاص .. وعمل ..

هذا كل شىء ..

هل نحتاج الى شىء آخر ؟! ..



« لا يهمنى من يضع للناس
شرائعهم ما دمت أنا الذى
أضع لهم أغانيهم »
كونفوشيوس

ماذا يبقى من أم كلثوم ..

أو محاولة لفهم الشخصية الفنية

.. الا المراة ! ..

عندها يصاب كل كتاب التاريخ المصرى بفقد الذاكرة ! ..

فأى شخص يتعرض لتاريخ المراة فى مصر لن يجد نموذجاواحدا لامرأة يحييها المؤرخون ، او حتى يؤرخ لها المؤرخون ! ..

فالمراة عندما ظلت لفترة طويلة صورة ملحقة بأصل اكبر منها واهم : الرجل ..

المراة فى تاريخنا ظل . خيال. صدى . ان المؤرخين لايتحدثون عنها الا من خلال رجل .. أو عن طريق رجل .. أو بوساطةرجل!

و .. هذه أول قاعدة ساهمت أم كلثوم فى كسرها ..

ان ما يبقى ــ او يجب ان يبقى ــ من أم كلثوم هو هــــذا : ان المراة تستطيع هى ايضا أن تساهم بشكل رئيسى فى حياتنا العامة .. وفى قضايانا العامة . ان ام كلثوم ــ كامراة ــ لم تنتظر الدعوة من أحد لكى تبدأ نشاطا وطنيا عاما بعدنكسة يونيو ١٩٦٧ ، وقبلها نشاط مستمر . النقطة هنا هى أن المراة يمكن ، تستطيع ، بل تقوم فعلا ــ بتحويل السياسة الى عمل بسيط يؤديه كل مواطن المراة هنا تستطيع أن تشارك ، تدعو ، تفكر ، تتقدم ، تبادر ، ثم تعطى المثل . لم تعد المراة هنا تحتاج الى أن تبرر نفسها مرتين : مرة كأمراة .. ومرة كمواطنة . لقد سقط الحاجــز الذى كانت المراة تجلس خلفــه .. كامراة .. وبسقوط هذا الحاجز بقيت الصفة الاساسية للمراة : انها مواطنة أولا .. ثم امراة بعد ذلك .

هذه نقطة ..

ولكن ام كلثوم فنانة مثلما هى امراة .

هنا ايضا نستطيع ان تكتشف ماذا يبقى لنا منها كفنانة . لقد اثبتت ام كلثوم من قبل ان المراة لا تستطيع ان تكونمواطنا محايدا فى القضايا العامة . انها هى ايضا يجب أن تتصدر الصفوف .

وما يبقى من أم كلثوم كفنانة هو أنالفنان ايضا لا يمكن أن يكون محايدا . الفنان لا بد أن يكون « مع » و «ضد» . الفنانلايستطيع ان يكون عديم اللون والطعم والرائحة .. لابد للفنان ان يكون له طابع ، لون ، موقف ..

فعندما جاءت ام كلثوم الى القاهرة كانت تستطيع بسهولة ان تكون مجرد مطربة اخرى تردد الاغانى الخليعة السائدة . مجرد مبتدئة تكرر ما نجح فيه غيرها . مجرد صدى . ولكنها اكتشفت انه لابد للفنان ان يختار . لابد ـ لان الفن هو أولا اختيار .

وحينما يختارالفنان فانه يفعل ذلك دون انيلوى ذراعالجمهور لا يستطيع . لا يمكن ..

◎❖◎

عند هذه النقطة بالضبط سوف نجد انفسنا وجها لوجه امام الدور الحقيقى للفنان ـ لاى فنان ـ دور نسىء فهمه غالبا ، دور يفرض علينا ان نفهم الفنان اولا .. حتى يفهمنا الفنان ! ..

◎❖◎

ان الفنان هو اولا متفرج . انه متفرج كأى شـخص ، ولكنه ليس كأى شخص ! ..

الفنان متفرج من حيث انه يعيش فوق نفس الارض التى نعيش عليها جميعا . يتنفس نفس الهواء . ينفعل بنفس الاحداث .
ولكن الفنان يأخذ تلك اللحظات التى هى بالنسبة لنا مجـرد لحظة ، زائد لحظة ، زائد لحظة اخرى ..ثم ينقلها الينا مرة أخرى كسلسلة جديدة مترابطة من الزمن ، لها معنى جديد .. وتفسير جديد ..

ان الشخص العادى يرى صورة الحياة مجزأة منظرا منظرا . يرى الجزء الذى يهمه ، ولكن الفنان يرى ـ أو يحاول أن يرى ـ الصورة كلها . فالشخص العادى يرى الشجرة .. والفنان يرى الغابة ..

من هنا بالضبط يبدأ الفنان فى الانفصال عن الشخص العادى .

فالشخص العادى يعيش حياته بالاقدمية . مجرد تسجيل اقدمية زمنية فى الحياة . ولكن الفنان ليس كذلك . انه ليس قطعة اسفنج تمتص الالوان وتعيدها الينا دون تغيير . انه يعيدها الينا الوانا جديدة.. بمعان جديدة .. ومضمون جديد.. فن..

والفنان ـ عندما يكتمل ـ فانه يتعلم أن يفكر ويشعر ويرى بشكل جديد ، طريقة خاصة . أسلوب مختلف . وهذا هو الامر الصعب دائما فى أى شىء ..

ان الروائى الفرنسى الشهير فلوبير كان يقول لكل واحد من تلاميذه اذهب وسر خطوتين .. ثم أكتب لى مارأيته فى مائة سطر ! . هذا حقيقى ..

فالفنان لا بد أن يرى مالا يراه غيره ، يلاحظ مالا يلاحظه غيره . يتفرج كما لا يتفرج غيره .

⊙❖⊙

وكل منا هو فى الواقع فنان بدرجة او بأخرى ، ان الغريزة التى تدفعنا الى أن نطابق بين ألوان جواربنا وأربطة عنقنا ، وتدفعنا الى أن نضع أزرارا على ملابسنا .. هى نفسها الغريزة البدائية التى تدفع الفنان فيما بعد الى البحث عن الجمال فى كل شىء قبيح . كلنا اذن فنانون بشكل ما .. بالرغم من أننا لا نعرف ذلك غالبا . اكتشاف . تماما كالبطل فى احدى مسرحيات موليير .. عندما يشعر بسعادة بالغة لانه اكتشف ـ فجأة ـ أنه كان طوال حياته يتكلم : النثر !! ..

نحن اذن نحتاج الى النظرة الفنية فى حياتنا ؛ نحتاج الى وجود الفنان . واذا لم نجده اخترعناه . فكل جيل يتولى اختراع الفنانين العظماء الذى يقدم لهم تقديره واعجابه ..

⊙❖⊙

ومن الاقوال المأثورة أن كل شعب يحصل على الحكومة التى يستحقها ..

ولكن الاقرب الى الحقيقة أن كل جمهور يحصل على الفنانين الذين يستحقهم ، لان كل جمهور يسعى دائما الى أن يتعرف على حقيقته . والفن يقوم ـ فى جزء منه ـ بهذه المهمة . الفن ـ كما قال الروائى الانجليزى د. هـ. لورنس : يخبرك بالحقيقة عن عصره أو ـ كما قال كارل ماركس ـ الفن هو دائما الحركة الخالدة لعصره



قبله .. على احسن كتاب : القرآن الكريم

او ـ يقول الفنان الشهير بيكاسو ـ اننا جميعا نعرف ان الفن ليس هو الحقيقة . ان الفن هو الاكذوبة التى تجعلنا ندرك الحقيقة .

ان الصفة الاساسية للفن اذن هى أنه يكتشف ويدرك لحسابنا انه يعطينا الوجه الآخر ـ الوجه الخفى ـ لحياتنا .

◎❖◎

والفنان حينما يقوم بهذه المهمة فانه يقوم بها لحسابنا جميعا . لحساب جمهوره . فلا تصدق انه يوجد فنان لا يهتم بالجمهور .. كذب . الفنان لا يمكن أن يستغنى لحظة عن الناس وعن الجمهور .. الآن ، او بعد مائة سـنة . بل ان الفنان الروائى تولستوى ـ فى تعريفه للفن ـ يقول انه « .. نشاط انسانى يحاول فيه واحد من الناس ان ينقل أحساسات معينة عاشها هو .. لكى يتأثر بها الآخرون ويعيشون هم أيضا » ..

ان جوهر هذا الراى لتولستوى يتشابه مع نظرية اخرى فى الشعر وثالثة فى القصة ، ورابعة فى الغناء . نظرية تصر على أن الفنان هو « .. انسان يتحدث الى الناس » ..

لهذا السبب فان الفنان يجد نفسه دائما فى وضع واحـد مع السياسى والقديس . ان الثلاثة هم الذين يحكمون العالم ـ الآن وفى اى وقت . الثلاثة عبيد لـ ـ وسـادة على ـ المجتمع الذى يعيشون فيه . الثلاثة يحتاجون دائما الى جمهـور ، ولهم دائما جمهـور . ولكن من الصعب أن تقول أيهم يملك السلطة الاكبر بالنسبة لجمهوره .

ان السياسى يملك السلطة ، والقديس يهدد بالجحيم ، والفنان يغرى بالجمال ..

وبالنسبة للسياسى فان العالم ينقسم الى قسمين : اصدقاء .. واعداء . الذين معه .. والذين ضده .

وبالنسبة لرجل الدين ينقسم العـالم الى قسمين آخرين : مؤمنين .. وكفار . الذين يؤمنون .. والذين يكفرون .

اما الفنان ـ فما زال العالم ينقسم عنده ايضا الى قسـمين : الذين يحبون .. والذين لا يحبون . الذين يتذوقون الجمال .. والذين لا يتذوقونه ..

انه اذن تقسيم مختلف . اهتمامات مختلفة . جمهور مختلف .

وأحيانا يكون الجمهور واحدا بالنسبة للثلاثة ، ولكن معنى هذا الجمهور يختلف .

أحيانا تكون الايدى التى تصفق للجميع هى نفسها .

ولكنها عندما تصفق للسياسى فهى تقول : موافقون .

وعندما تصفق للقديس فهى تقول : مؤمنون .

وعندما تصفق للفنان فهى تصيح : اعطنا المزيد .. أعد ..

ان الجمهور يقول ذلك للفنان بغير سلطة يخشاها أو جنة تغريه .. اختيار .. لان الفنان هو الوحيد الذى يعيش بعقله . يعيش على ذكائه ، وذكائه فقط . انه يلعب على المكشوف . ان أوراقه كلها يراها الجمهور ..

⊙❖⊙

لهذا السبب نفسه فان الفنان يحتفظ بأذنه دائما قريبة من ايدى الجمهور . وكلما صفق له الجمهور أكثر .. احتاج هذا لتصفيق اكثر . المسألة كمياه المحيط . كلما شربت منها اكثر .. عطشت أكثر . ان الفنان هنا كالبطل فى احدى روايات بلزاك ، حينما يطل على باريس ويصيح : لم يزل أمامى ان امتلك هذه ! .

⊙❖⊙

ولكن الفنان لا يحصل على اعجاب الجمهور بسهولة . واذا حصل عليه أصبح صعبا ان يحافظ عليه .

المسألة هنا كطرفى مقص • كلما حصل الفنان على اعجاب من الجمهور .. شعر بخوف أكبر من فقدان هذا الجمهور . خوف من ألا يتلقى هذا الاعجاب مرة أخرى .

ان الذين يعرفون ام كلثوم عن قرب ، يعلمون أنها تعتبر ان كل اغنية جديدة تقدمها للجمهور هى اغنيتها الاولى . هى لقاؤها الاول مع الجمهور . انها تحس بخوف ، باضطراب ، بقلق ، بمسئولية ، انها تحس أن كل عمل جديد تقدمه هو استفتاء جديد لشعبيتها ، هذه المسئولية نحو الجمهور ، هذا القلق ، يشغل كل فنان أصيل بأكثر مماتتصور ، وكلما كبر الفنان زاد قلقه .. زادت مسئوليته .. ان أى شخص .. كلما ارتفع فوق السلم .. ازدادت خشيته من السقوط . لانه كلما كان مرتفعا .. كان السقوط مدويا ..

وسقوط الفنان يمكن ان يتم فى اى لحظة . لايكفى ان تكون فنانا امس ، ولا منــذ خمس دقائق . يجب ان تكون فنانا الآن ، وفى كل لحظة . ان بيرجنت بطل مسرحيــة هنريك ابسن يصيح قائلا : اين ثلوج شتاء مضى ؟ !

والجمهور يفعل نفس الشيء : لقد ذابت بالنسبة له ثلوج شتاء مضى . ذابت امجاد يوم مضى . ماذا من جديد .. هذا مايهم الآن

ان هذا الخوف من ـ والحاجة الى ـ الجمهور ـ هو ابرز مايميز الفنان عن غيره فى هذا العالم . أنالجمهور بالنسبة للفنان هو المكافاة .. وهو العقاب . هو البداية .. والنهاية . السعادة .. والالم . القمة . . والقاع .

هــذا معناه أن الجمهــور يملك دائما حق الفيتو بالنسبة لاعمال الفنان . حقا يحمى أهل الفن دا ئما من اهل الهوى . ويميزهم عن اهل الهوى .

فالفن يرفض التكرار . . حتى ولو طلبه اهل الهوى .

والفن لايقبل الوساطة . . حتى ولو حاولها اهل النفوذ . .

والفن لا ياخذ رشوة . . حتى ولو دفعها اهل الغنى .

كل الفنون هكذا : ادب . . موســـيقى . . رسم . . شعر . . صحافة . . وغناء

انها علاقة مباشرة تجعل الفنــان دائما اصدق ممثل للجمهور . فالفنان الصــادق دائما هو الذى يتقمص الصفات البارزة لشعبه . من الذى يفوق فى أمريكيته مثلا سبنسر تراسى او هنرى فوندا أو هنرىميللر . منالذى يفوق فى ايطاليته البرتومورافيا او انا مانيانى ؟ منالذى يفوق فىفرنسيته جان بول سارتر أو بريجيت باردو ؟ من الذى يفوق فى مصريته طه حسين أو العقاد او أم كلثوم ؟

كلهم يحملون فىاعمالهم بصمات شعوبهم واضحة . صفاتمجتمعهم كاملة . اتفق أو اختلف مع هــذه الصفات كما تشاء . . ولكنهم فى النهاية رمز وتلخيص لها .

◎❖◎

والفنان ـ بجانبمهمتهكمتفرج على الحياة ـ هو ايضا مفسر لهذه الحياة . انه مؤرخ للماضى . . ومكتشف للمستقبل فى وقت واحد .



ان وجه ام كلثوم خال من الزوايا الحادة القاطعة . وجه يفضل ان يستوعب اولا في كل مناقشة قبل ان يبدأ الحديث

صعوبة جديدة تضاف الى الصعوبات السابقة فى عمل الفنان .

فالفنان عندما يكون كاتبا .. فانه يصبح كالطبيب : لاتهمه حالات اكتمال الصحة ، ولكن تثيره حالات تفشى المرض .

وعنـدما يكون اديبا .. يصبح كالفلكى : يبدأ بما يراه الجميع .. لكى يصل الى مالا يراه الجميع .

وعندما يكون موسيقيا او ممثلا او مغنيا .. يصبح كالشمعة : لابد أن تحترق .. لكى تنـير للآخرين . لابد ان يتألم الفنان .. لكى يسعد الآخرين .

فالشمعة فى يد الفنان تحترق من طرفيها ، لابد للفنان ان يتعذب ، يقاسى ، يتألم ، أحيانا يستشهد ، لكى يقدم للآخرين شعاعا من النور يهديهم الى الطريق .

وكثيرا مالا يرى الناس أثرا لهذا العذاب فى عمل الفنان . تماما مثلما نلاحظ فى حيـاتنا العـادية أن كثيرا من الاشـياء التى نأكلها قد طبخت على موقد بوتاجاز .. ولكننـا لانعثر فى الطعام على مذاق البوتاجاز .

لهذا السبب كان الموسيقار الالمانى الشهير بيتهوفن يقول دائما : انى اصبر وأفكر واتألم .. فكل الم يجلب معه بعض الخير !

ان هذا الامل ـ الامل فى بعض الخير بعد كل العذاب ـ هو العزاء الاخير لاى فنان عن المه ، مثلما نجد ان نجاح انطلاق الصاروخ فى دقيقة هو العزاء الاخير لسنوات من الجهد الذى بذله المهندسون والعلماء فى تركيب هذا الصاروخ .

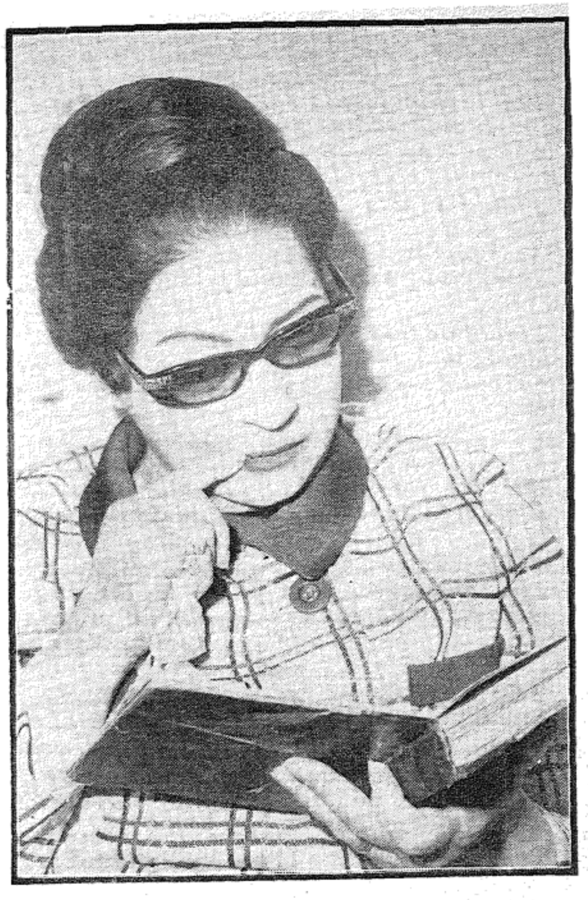
ان الخوف من الجمهور يسبب أقصى الالم ، ولكن مكافأة الجمهور تسبب أقصى سعادة . شـعور عبر عنه حكيم الصـين القديمة كونفوشيوس بقوله : « لا يهمنى من يضع للناس شرائعهم ما دمت أنا الذى أصنع لهم أغانيهم » .

لان الفن هو فى النهاية تعبير الانسان عن سعادته .

***

و .. أم كلثـوم هى أولا امرأة ، وثانيا فنانة ، وثالثـا فنـانة تسعد الناس .

وبالمنطق ...



ام كلثوم تقرا .. انها تقرا آيات من القرآن الكريم ..

الصور الحديثة لام كلثوم بعدسة فاروق ابراهيم

ليس من حقنا ان نستهلك السعادة دون ان ننتجها . كلمات نظرية ، لاننا نرى غير ذلك فى حياتنا . نستهلك الثروة دون أن ننتجها ، نستهلك الجمال دون ان نخلقه . و. نستمع الى ام كلثوم ، دون ان ننتج أم كلثوم اخرى . ولسوف يظل الامر هكذا الى ان نفهم أولا طبيعة الفنان كشخص متميز . نفهم ثانيا ماذا يتبقى لنا من الفنان من ام كلثوم فى حالتنا هذه .

ان أم كلثوم فنانة تغنى . قمة فى فنها . مستمرة فى قمتها . ان استمرارها هذا نجاح فى حد ذاته . فمع صدام الاجيال المستمر الذى تشهده الانسانية .. لايوجد جيل يتقبل احكام واذواق الجيل السابق عليه بغير مراجعة أحيانا وبالرفض غالبا . ان هذا لم يحدث مع أم كلثوم . استثناء خاص .

ان هذا الاستثناء لم يكن مجاملة شخصية لام كلثوم . فالفن لايقبل المجاملات . وانما هو نتيجة لصفات استثنائية تميزت بها أم كلثوم . صفات حاول هذا الكتاب تسجيل عناوينها الا صفة أخيرة .. هى حياة أم كلثوم نفسها .

فنحن — فى الادب مثلا — نرى ان هناك نوعين من الفنانين . نحن نرى فنانين تطغى اعمالهم الفنية على حياتهم . شيكسبير مثلا . نحن لانعرف من هو شيكسبير .. أو من كان هومر . لقد اختفى الفنان هنا داخل عمله ، وتراجعت حياته وشخصيته الى الخلف تماما ..

وفى مقابل ذلك نجد فنانين طغت حياتهم على أعمالهم الفنية . جان جاك روسو مثلا . ان اعترافاته التى سجل فيها حياته أصبحت أهم عمل فنى له . لقد أصبحت حياته نفسها عملا فنيا تراجعت الى جانبه كل الاعمال الاخرى .

◎❖◎

وبالنسبة لام كلثوم فاننى ارى أنها تنتمى الى النوع الاول فى المدى القصير ، وتنتمى الى النوع الثانى فى المدى الطويل . ان السنوات القادمة سوف تؤكد ذلك .

تؤكد ان حياة ام كلثوم هى نفسها العمل الفنى الاكبر الذى تركته لنا ..

و . . .

كم الساعة الآن — لو سمحت ؟ !

محمود عوض

شركة

عادل

للملابس والمنسوجات

٥ شارع صبري أبو علم

القاهرة ت ٤١٥٨٢

أرقى بيوت الأزياء

للرجال





شركة اسطوانات صوت القاهرة
تقدم من روائع سفيرة الفن العربي
أم كلثوم
ألف ليلة وليلة
هذه ليلتي
فات الميعاد
حديث الروح
هجرتك
حب إيه
مش ممكن أبدا
حيرت قلبي
لا يا حبيبي
حسيبك للزمن
ظلمنا الحب
سيرة الحب
أنت عمري
بتفكر في مين
للصبر حدود
أقولك إيه
أغار رابعه
أمل حياتي
بعيد عنك
أروح لمين
عودت عيني
يا ظالمني
ذكريات
الأطلال
فكروني
إنت الحب
رباعيات الخيام
أراك عصي الدمع
تباع بفرع الشركة ٣ شارع البورصة الجديدة بالقاهرة ومعارض شاهر سنتر يلك وجميع محلات بيع الاسطوانات بمصر والخارج
وبمعارض :
الكويت : سعد وخالد نصار الشريعان ص.ب ١٥٦ الكويت
لبنان : قطان إخوان شارع بشارة الخوري بناية طرازي ص.ب ٢٥٩٤ بيروت
العراق : محمد عارف حقاقجي شارع الرشيد ص.ب ١١٠١٦ بغداد


الأناقة والذوق الرفيع
تتوفر دائما في معروضات
صيدناوي
شملا
الشركة المصرية للملابس والمنسوجا
٢٥ فرع من الاسكندرية إلى أسوان لخدمة